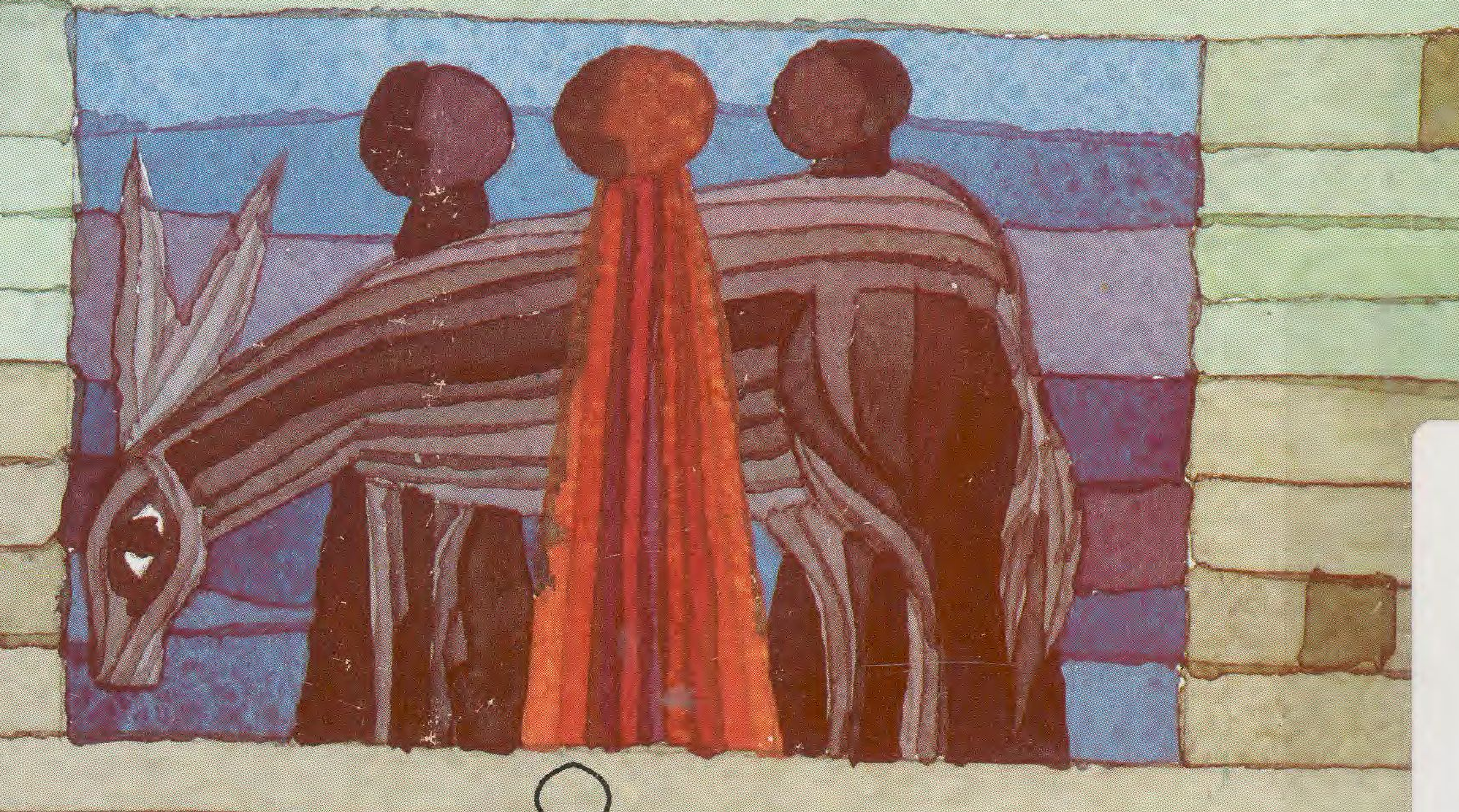


رواية

الجزيرة البيضاء

يوسف أبو ريه



المجلس الأعلى للثقافة



المشرف العام: د. أحمد مجاهد

سكرتير التحرير الفني: هشام نوار

رواية

الجزيرة البيضاء

يوسف أبو رية

الطبعة الثانية، ٢٠٠٣

المجلس الأعلى للثقافة

١ شارع الجبلاية، دار الأوبرا، القاهرة

الرقم البريدي: ١١٢١١

تليفون: ٧٣٥٢٣٩٦

فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤

بريد إلكتروني:

egypt council @ yahoo. com

رقم الإيداع: ١٢٧٣٤ / ٢٠٠٢

التصميم والإخراج للفنان

عدلي رزق الله

إهـــــداء ٢٠٠٦

المجلس الأعلى للثقافة

القاهرة

المجلس الأعلى للثقافة

سلسلة إبداعات التفرغ

الجزيرة البيضاء

يوسف أبو رية

رواية



٢٠٠٢

المجلس الأعلى للثقافة

اسم الكتاب : الجزيرة البيضاء .

اسم المؤلف : يوسف أبو رية .

الطبعة : الأولى - القاهرة ٢٠٠٢ م .

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House. El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 **Fax :** 7358084 **E. Mail :** asfour @ onebox. com

القسم الأول

الشمس تميل نحو الجهة الغربية ، صورتها المعكوسة على قضيب الحديد كانت تزحف بسرعة السيارة ..

ادنو الآن من الجزيرة البيضاء .

* * *

قالت البطاقة التى وقعت فى أيدينا بعد وفاته إنه المنصور بن الشحات ، مولود قبل إنقضاء القرن المنصرم بعامين ، ثم دخل هذا القرن يحبو على قدميه ، كأنه هو ذاته ، جاء معه ، ورحل قبل نهايته بقليل .

لو صدقت أرقام البطاقة يكون مولوداً بعد الإحتلال بستة عشر عامًا، ويكون مصطفى كامل قد بلغ الرابعة والعشرين ، (هل سمع به ؟ لم يذكر اسمه أبداً ، يبدو أن إنشغال هذا المحامى بالكتابة فى الصحف ، والخطابة ، والإنتقال إلى الخارج لإذاعة القضية لدى الجمهور الأجنبى لم يتح الفرصة لوصول هذا الصوت إلى الداخل ، إلى القرى البعيدة) .

انهى دراسة الحقوق واكتملت قدرته فى السيطرة على الجملة البليغة ، ليطلقها فى الوادى "لا يأس مع الحياة ، ولا حياة مع اليأس " والمصرى يحاول معه أن يهتك عنكبوت الوخم ، يخرج من قوقعة الهزيمة، ويغفر لعرابى المنفى فى سرنديب البعيدة (حدثنى عنه لأنه بلدياته) .

كانت البلدة – قبل عامين من ميلاد المنصور– قد تحولت من قسم تابع لمركز الصوالح إلى مركز يحمل اسمها [1] ، نقلت إليها الأوراق والمصالح الأميرية نظراً لوقوعها على سكة الحديد .

انقضى زمن القوافل ، وحضرنا زمن البخار الذى يشيع القوة فى عضلات الحديد ، ضمرت الصالحية والصوالح والعلاقمة والقرين وبلبيس لتحيا فاقوس وأبو كبير والزقازيق ، حسم الأمر للبلاد الخضراء ، والماء العذب ، فى مواجهة عصر الرمال والعير .

---

(١) تقول الأسطورة إن الاسم القديم للبلدة هو (الجزيرة البيضاء) ثم جاءت جماعة من البدو بعد الفتح العربى يسألون عنها فقال لهم أحدهم : ها هى .. فصار يطلق عليها اسم ههيا ، بينما يؤكد محمد رمزى فى كتابه القاموس الجغرافى أنه اسم قبطى قديم .

امتدت سكة الحديد شرياناً جديداً يدفق دم الحياة فى عروق الوادى ، ماتت بلاد ، وتأجل نمو بلاد ، وبلاد ثبتت على حال القرى ، لتبعث من الوجود والعدم مدن جديدة وقديمة . وانحازت الإدارة للحياة العصرية ، فنقلت إلى هذه المدن أوراقها وأختامها ومكاتب المستخدمين، وانشأت لهم مساكن لائقة بمواقعهم الوظيفية ، وضمنت لهم حياة كريمة تحفظ هيبة الدولة الحديثة الناهضة من غفوة العصور الوسطى .

انطوت فى التاريخ صفحات تحفظ للخيل والجمال مجدها ، وشملت صفحات ناصعة لحياة الحديد الذى يجرى على حديد ، ينفث الدخان ، دخان الروح ، وتلبدت سماوات الحقول بسحب لا يسقط منها مطر ، وانتفضت سيقان الزرع على ضجيج الآلة التى تنقل البشر والبضائع بين المدن والسواحل .

وجاء الآخرون من وراء الشواطئ ينقلون منتجات الأراضى السوداء إلى بلادهم البعيدة . ثم اتوا إلينا ببضائع مستحدثة ، ودارت ماكينات الحلج والغزل والنسج ، وانطلقت تكتكات الطواحين تقلق سكون القرى الغافية .

ولد المنصور- عقب مد شريط القطار بأقل من أربعين عاماً - فى واحدة من هذه الدور المعتمة التى تفتح أبوابها وطاقاتها على شوارع ضيقة وملتوية لا تتسع إلا لجسد الإنسان وهياكل الماشية .

هذه البلدة ظلت طيلة التاريخ القديم حتى سنى صباه الباكر تحمل ملامح القرية ، وتدار كما تدار القرى بعمدة وشيخ وعدد من الخفراء ، تتحلق حول الجامع الكبير [٢] الذى أشيع أن أحد صحابة النبى أقام ردحاً من الزمان من موضعه ، ولم يذكر لنا مروجو الإشاعة اسم هذا الصحابى الجليل الذى كان سبباً فى نشر الإسلام . وتشييد أول مسجد فى الناحية ، وقيل إنهم حين أرادوا تجديد بنائه عثروا أسفل جدار المحراب على حجر كبير محفور عليه تاريخ البلدة ، وجاء رجال ليسافروا بهذا الحجر حيث الحقوه بمتحف العاصمة [٣] .

---

(٢) لا وجود لاسم هذا المسجد فى كتب الخطط ، واشهرها كما هو معروف خطط المقريزى ، والخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك .

(٣) قمنا بزيارة للمتحف للسؤال عن هذا الحجر التاريخى فلم نعثر له على أثر ، بل أن المسئولين أكدوا إن المتحف لا يضم آثاراً إسلامية تذكر لهذا البلد أو لغيرها من مدن وقرى المحافظة .

اقيم الخط على مسافة تقل عن الكيلو متر مابين التل والسهل المسطح الذى ينأى عن ليونة البرك والمستنقعات وأراضى السبخ ، انقضت الوحشة عن هذه المساحة ، وبدأت الأقدام تدب رائحة غادية مع كل قطار ، فخلقت لنفسها المماشى بين الحقول والماء الراكد .

المشى الأول قام ما بين بوابة المحطة وقنطرة النهر التى تربط البلدة بالمورلية [٤] الواقعة على الجانب الغربى ؛ فلأهمية الأخيرة بالنسبة للأسرة العلوية ، ولعلاقة ناسها بالسراى صار لها مكانة خاصة ، ،فهم من الأسر التى والت إبراهيم باشا فى حرب المورة ، والكثير منهم عمل فى الدائرة السنية ، أسرة الأسطى تنسب إلى السائق الخصوصى للعربة الخديوية ، وأسرة البواب تنسب إلى بواب قصر عابدين ، وأسرة البنحشونجى تنسب إلى البستانى الذى كان يراعى حدائق القصر ، وكذا باقى العائلات تعلو وتسفل وفقًا لمكانتها وقربها من الحاكم ، هذه العلاقة الوثيقة أدت إلى ازدهار المورلية ، والإزدهار يصحبه نشاط وحركة ورغبة فى التنقل وتبادل السلع وكثرة التردد على المدن القريبة والبعيدة ، وتعدد السفر إلى العاصمة .

الممشى الآخر الذى بدأ من أول انحدار للتل [٥] إلى البوابة الحديدية الكبيرة الواصلة ما بين غرب خط القطار وشرقه لم يكن أبداً طريقًا ممهداً ، بل بدأ كطريق ترابى نحيل يخترق الزراعات فى التواء ملحوظ فرضته حدود الملكيات والحركة المحدودة لأهل البلد الذين ينتقلون صباح مساء بماشيتهم من دورهم إلى الحقول الواقعة بالجهة الشرقية ، كانوا - قبل قيام الخط الحديدى - يتوزعون فى طريق شتى ، ثم جاء الخط ليقفل عليهم الطريق إلى حقولهم - ويضطرهم لعبور البوابة الحديدية، لهذا فإن السير على طريق واحد اكد هذا الممشى وجعله ينمو ويتسع ، غير أنه ظل محدوداً وضيقًا ، ولم يتخذ لنفسه مساراً حاسماً كما حدث للأول الذى تطورمع الأيام ، بافتراشه بالحصى والزلط ، ثم فى مرحلة لاحقة امتدت عليه طبقة سوداء من

(٤) آثرت استخدام الاسم القديم ولم استخدم الاسم الدارس "طناح" كما لم استخدم الاسم غير الرسمى "العمارة" ولا الاسم الرسمى الذى ينسب إلى إبراهيم باشا .

(٥) هذا التل له تسمية خاصة تتردد على ألسنة العامة وهى "العلوانية"

الأسفلت ، وغرست على جانبيه أشجار العبل السامقة التى اقتلعت - فيما بعد - لتقوم البيوت على الجانبين ثم تفتح محلات البقالة والمطاعم والمقاهى والصيدليات وغيرها من المحلات التى تلبى حاجة العابر للطريق .

هذه إذن السكة الزراعية التى مازال أهل البلد رغم انتفاء صفة الزراعة يرددون اسمها .

كان إحياء هذا الطريق الهام الذى اجبر البلد على النزول إليه مع الخواجة ديمترى [٦] الذى جاء مباشرة عقب إنشاء سكة الحديد فافتتح فى مواجهة المحطة مقهى ظل لفترة طويلة المكان المفضل لأعيان البلد من التجار والموظفين الكبار ، وبقيت حتى زمن قريب لافتته السوداء المكتوب عليها بخط أصفر باهت (بورصة) تدل على أن هاهنا كانت تعقد صفقات القطن حيث كانت أكياسه المدكوكة تجمع بالقرب من المقهى ، فى هذه المساحة التى أقيم عليها مكتب البريد وورشة البلاط ليسهل حمله إلى عربات قطار البضائع الذى خصص له رصيف مستقل يمتد حتى المحطة الأولى لقطار الدلتا .

لم يكتف الخواجة ديمترى بهذا بل ابتنى لنفسه بيتًا من الحجر [٧]، تكون البيت من دورين ، الأول محل بقالة واسع جداً ، والدور الثانى جعله لسكنه ، هو وأسرته ، ثم قسم محل البقالة ، فجعل قسمه الداخلى (خمارة) لتناول الخمور ، ولم يجرؤ أحد من أبناء البلد على التردد عليه كانوا يقطعون الطريق أمامه ، فيلكز أحدهم الآخر ويهمس فى أذنه : إنهم فى الداخل يشربون الخمر .

أويقص الطفل الذى قدم إلى محل البقالة على أمه كيف رأى رجالا لهم بشرة حمراء فاتحة يتحلقون موائد فى عتمة المحل يكرعون كئوس الشراب ، ومع الزمن تجرأ على إقتحام المكان بعض الأعيان ، ثم جاء شبان البلد ، خاصة فى مواسم القطن حيث تكون جيوبهم عامرة بالمال.

---

(٦) قيل أن أصوله يونانية وفى رواية أخرى ترجع أصوله إلى الطليانية وراجح أنه ينسب إلى الطائفة الأولى ، فقد أكدت كتب التاريخ الحديث أن هجمة جريجية دخلت مصر فى النصف الثانى من القرن الماضى .

(٧) سيؤول هذا البيت إلى أحد عماله بعد أن يضطر الخواجة لمغادرة مصر فى بداية حكم عبد الناصر وسيأتى ذكر هذا العامل فى القسم الثانى من الكتاب .

بعد ذلك انشأ الخواجة ديمترى الطاحونة التى كانت تدار بالثيران، يعقد النير على أعناقها ، ويصله بحجر صوان ضخم له مجار منحوتة فى باطنه ، يدور على حجر آخر مثبت على الأرض ، لم تكن الطاحونة فى بدايتها تزيد عن رحى مهولة . ثم استيقظت البلد يومًا على صوت الوابور الذى ينفض العادم من ماسورة ترتفع بطول نخلة .

فى هذه الأثناء ضاقت دار عائلة المنصور بناسها ، فطلب الجد العزلة ، فهبط بأولاده التل العالى [٨] إلى السفح ليقيم داره على قيراط الأرض المجاور للطاحونة .

* * *

الشمس يزداد ميلها نحو الجهة الغربية ، وصورتها المعكوسة على قضيب الحديد لم تزل تزحف بسرعة السيارة .

كنا نعبر القنطرة الأولى التى تنقل الماء إلى القرى الواقعة فى الزمام الشرقى ، وبعد أقل من كيلوين نعبر قنطرة أخرى . يمر من أسفلها ماء ترعة تقف على حافتها شواهد القبور .

أدخل الآن الجزيرة البيضاء .

* * *

---

(٨) هناك رواية عن الأجداد تؤكد أن كل من لا يمتلك دارًا فى هذا الحى فإن أصوله لا ترد إلى البلد ، وإنما هو من الأغراب الذين نزحوا إليها ليعملوا فى الإدارات الحكومية المختلفة التى تكاثرت مع بداية انتقال المركز .

- ١ -

حين فتح الباب ، رأيتهم فى الردهة يعصرون الدمع من مناديلهم ، وقفوا جميعًا فى صمت ، توقيراً لحزنى ، ولكن أحداً لم يتـقدم نحوى ، كنت نهـبًا لحيرتى ؛ لأنى لا أدرى أية غرفة أدخل ، وانتبهت أمى لذلك ، فدنت منى ، ضمتنى إليها منهنهة ، وواربت الباب الذى عن يمينى .

رأيتك على سرير منخفض ، تلملم بدنك النحيل ملاءة بيضاء ، انزاحت قليلا عن الصدر ، لتخرج من ذراع وحيدة ، ألقيتها أنت دون وعى منك ، فلامست الأرض .

جلست على الحافة ، وأمكست بهذه اليد المهملة ، جعلتها بين كفى، ورحت أدعكها بحنان ، رأيت الوشم الذى يدور كخاتم قديم أسفل الإبهام ، شبكت أصابعى فى سلامياتها ، وضغطت علك تنتبه إلى حضورى، ولكنك كنت مشغولا باستنشاق الهواء بجهد ليطرده صدرك المنتفض فى دفعات قوية .

إقتربت أمى لتصيح فى أذنك : كامل جاء .. انظر إليه . وجاهدت فى أن ترفع الجفنين حتى رأيت الغشاوة التى وارت العين . كم جرحتنى بنظراتها الآمرة .

لم يرفع الجفنان أكثر من ثانية ، وسقطا مرة أخرى ، بلا إرادة منك ، وفاضت من تحتهما دمعة كبيرة . بللت جفافهما الأزلى سالت الدمعة على صدغيك ، فكاد قلبى ينتزع من موضعه لشدة الهول .. كيف تبكى ؟ كيف تضعف ؟

ونشـجت بشدة حتى انهار جسمى علـيك ، وقـدرت أن أفعل ما عجزت عنه عمرى . أن احتضنك .

قال الذين يجلسون بالخارج : أغلقوا عليهما الباب .

حين سقط الظلام ، وانحبس عمود النور بين الضلفتين . سمعت نحيبهم ، ورأيت عينيك تنفتحان عن آخرهما ، فحرت ما بين الخوف والرجاء .

* * *

- ٢ -

أراني واقفًا أمام أبى (جدك) الذى سيستدعوننى يومًا وأنا جالس بين الرجال لاسمع كركعاته وهو نائم على ظهره عارياً فوق المغسلة ، رفع كفى الصغيرة الباردة ، طوى أصابعى على القرش ، ثم فتح لى الباب فواجهنى تيار الهواء الذى ازال روائح دخان القش من غرف البيت ومن جسدى ، ودعا الله أن يفتحها فى وجهى ، ومن الداخل أتانى صوت أمى (جدتك) التى ستعيش حتى تموت فاقدة البصر وهى تدعو الله بأن ينور طريقى ويحل عقدة لسانى ساعة سؤالى ، يا للمسكينين كانا يحلمان بأن أصير من رجال العلم !!

سرت متأبطًا لوحى ومنديل غدائى محاذراً بحيرات الماء المتجمعة من أمطار البارحة ، ولا قيت فى طريقى ديمترى صاحب الطاحونة (التى ستؤول إلىَّ) يشرف على رجاله ، وهم يضعون الحجارة الكبيرة ، من أول الشارع حتى حجرة الميزان .

– ناموسيتك كحلى يا منصور .

– صباح الخير يا خواجة .

– مطر كتير .. زبون مافى .. فلوس ما فى .

رفعنى واحد من رجاله ، وسار بى فوق الحجارة ، ووضعنى على أول الطريق .

– احفظ القرآن يا ولد .

– يا مطرة رخى .. رخى ..

– امشى كلبة .

–على يمينى الدار التى سأبتاعها لتدخل حرم الطاحونة كى تحقق المسافة القانونية بين الوابور وأقرب جار ، وعن شمالى الأرض التى سأؤجرها لأزرع فيها عيدان القصب ، قبل أن يتحقق الحلم فى امتلاك الطاحونة .

على آخر زاوية من هذه الأرض يطل المقام المدهون بالجير الأبيض، وتميل على قبته أغصان الجميزة العريقة .

لاقيته تحتها ، يدق المسمار الحدادى فى جذعها ، انتبه لقدومى ، فاشار إلى ، قال : يمكنك أن تعلق صرة الغداء فى هذا المسمار .

– لا أريد البقاء معك فقد تغيبت بما فيه الكفاية .

– أنت الآن تفك الحروف بعينك وترسم الحروف بيدك .

– لم أختم أجزاء القرآن .

– ها أنت ترانى فى مكانى لا أقرأ ولا اكتب ولا ينقصنى شىء .

– إن الشيخ قد يخبر أبى عن غيابى .

– سنبنى اليوم حظيرة كبيرة .

– أنا البنَّاء .

– طبعًا .

– لابد للحظيرة من مواشٍ تربط على مداودها .

– لدى كلبان رائعان .. علق الصرة هاهنا وسأدلك على مكانهما.

علقت الصرة ، وركنت اللوح على عتبة المقام بينما هو يحضر الطوب، ويعجن التراب فى الماء ، ذهبت إلى القناة الجافة التى تلتف حول داره حيث وجدتهما هناك مغمضى العينين رفعتهما من جلدة العنق ، وعدت إليه فوجدته قد فرد الصرة على الأرض وأخرج الخبز والجبن ، قال والطعام يتناثر من فمه .

– الكلبان بالرغيف والغموس .

ظل يساومنى بصرة غدائى مقابل اللهو بجرائه وتشييد البيوت الصغيرة حتى فاجأنى أبى ذات صباح ، فأمسكنى من قفاى ، وجرنى إلى البيت ، غلق على باب الحجرة و... "فين يوجعك" وكنت أسمع نحيب أمى من الخارج .

- تستاهل .. تبيع كتاب الله بكلاب صغيرة .

صباح اليوم التالى عقدت لى صرة الغداء ، هذه المرة لم يكن طريقى إلى الكتاب إنما وضعت على الحمارة قهراً .

وسحبت مع الماشية إلى غيط "الحاشية" [1]

قضيت فيه صباى ، وأول فتوتى ثم عدت شاباً لاؤجر الأرض التى لهوت عليها طفلاً ، وعشقت بين حدود ليلها أول امرأة ، كانت من نصيبى.

* * *

---

(١) منسوب إلى أحد رجال الحاشية الملكية من المعروف أن معظم أراضى الحوض الشرقى من إنشاص إلى الصالحية من أملاك الأسرة العلوية ، والمنطقة التى هى محور هذا العمل كانت أملاكها تتبع محمد على باشا ابن الخديو توفيق ، والبرنس حليم باشا .

- ٣ -

دخل علينا أخي فؤاد (الذى سيدفن إلى جوار أبيه بعد رحيله بخمس سنوات) فعادت العين الكليلة إلى أغماضتها ، والقيت الذراع إلى فراش الأرض ، ربت على كتفي مواسياً ، ومال على وجه أبيه : كيف حالك اليوم ؟

وهمس في أذنى : تسمح .

وأخرجنى من غرفة الأب (التى سنحيلها إلى مدخل للبيت حين نعيد بناءه) دسنا بنعالنا على الحصير الذى تتوزع عليه النسوة ، لنمرق إلى الغرفة الغربية (سنقسمها فيما بعد لنشكل منها المطبخ والحمام) نفض الجلباب عنه بطنه البارزة ، وسحب من حافظته ورقة صغيرة .

– أنا أسجل كل شىء .

– تقصد المصاريف .

– لا حرج في هذا .. لم يخسر أحدنا شيئًا من جيبه .

– كله من خيره .

– طبعًا .. عدت للتو من الجبانة .

– إنك تتعجل الوفاة .

– حاشا لله .. التربة كانت مهملة ، فأخذت رجلين فتحنا العين وكومنا العظام القديمة على جنب ، وكنسنا مكانها ، ثم فرشناها بالرمل واعددنا الطوب الأحمر والأسمنت (سأراه بعد خمس سنين وهو يُرفع عن النعش ملفوفًا في كفنه ليدخل من نفس العين ليمدد بطوله على رمل جديد إلى جوار كومة من عظام الأب) .

– يا أخي ينبغي أن نتحدث عن الطبيب المعالج ، لا إعداد المقبرة .

– أنت صغير السن ولا دراية لك بمثل هذه المواقف المحرجة .

– ربما .

– هل حدثك عن المال الذى أدخره لمثل هذا اليوم ؟

– أبداً .

– قلنا إنه استعجل قدومك لهذا الغرض .

ورأيت أمى (التى سترحل بعد خمسة شهور من رحيل الأب) تقبل نحونا ، فأدار ظهره ، وتشاغل بالنظر إلى السقف ، وقفت بيننا عاقدة يدها على بطنها ، ونظرت إلى أخى :

– هكذا ينعقد لسانك فجأة كلما لمحت وجهى .

– يا خالة أقول له لابد من طبيب كبير للكشف عليه .

– ولماذا لم تفعل ذلك قبل مجيئه !

– وهل قصرت ؟ لم يسهر عليه غيرى .

– أذهب لحالك .

– سأختفى عن وجهك ، ومن يحتاجنى فإنكم تعرفون بيتى .

واتجه غاضباً نحو الباب ، ومدت الأم يدها إلىَّ قائلة .

– إنك بحاجة للراحة .

– فعلاً .

– السفر كان شاقًا بالنسبة إليك ؟

– سأموت من الجوع .

- غيرً ملابسك وشطف وجهك أولاً .

عدت إلى الردهة حيث النسوة القابعات بجلابيبهن السوداء ، كان باب غرفة الأب مفتوحًا وصوت شهيقه وزفيره يملأ المكان ، ولمحته بجانب عيني ينظر نحوى ببسمة حلوة لم تعل وجهه إلا مع سنوات الشيخوخة المتأخرة .

* * *

- ٤ -

دخلت غرفتى المهجورة (سنجعلها محلاً يفتح أبوابه على الشارع الرئيسى) لم يتبدل شىء فيها ، السرير فى مكانه تحت النافذة العالية والمكتب الصغير أمام أرفف المكتبة المعلقة على الحائط والطاولة عليها ، الصينية الدائرية التى تحتوى على علب الشاى والسكر وموقد السبرتو.

فتحت زجاج النافذة المنخفضة ، وتركت الشيش مغلقًا . فسرت فى الغرفة نسمة هواء خفيفة مصحوبة بأصوات الشارع .. ياه .. وفردت ذراعىّ عن آخرهما ، وحركت جسدى إلى الأمام وإلى الخلف ، مددت طولى بعرض السرير فثارت ذرات غبار نفضتها بيدى .

وسرحت أفكارى إلى الليالى الطويلة التى قضيتها بين جدران هذه الغرفة ، شرنقتى التى تشكل فيها العقل والوجدان معًا ، الرحلة بدأت من هاهنا ، فهل ستصل إلى منتهاها فى نفس المكان ؟

(ورأيتنى أصعد سلمًا قديمًا ، ليس له سور ، خيل لى أنى سأقع إذا زلت القدم وكما تركنا الظلام فى المدخل ، ظلام باهت مما أكد لى أن الشمس رحلت إلى بلادها البعيدة ، والبيت قبل أن ندخله كان عاليًا وموحشًا ، والخلاء كان جاثمًا بين نخيل وأشجار خريفية ، لا شىء .. فقط البيت ، بمشربيات ومداخن ، وسطح منحدر على الجانبين .

وقفنا أمام البيت المهترىء نصفه الأعلى مفتوح ، لا زجاج .

فى عينيها مكر حواء ، وفى قلب حب ، وغيرة .

شعرها فوضى ، ورداؤها خرقة ، بانت أفخاذها البيضاء فيها الرغبة والنار .

طرقت كصديقة ومبشرة ، رفضت أن أصحبها إلى هذا المكان ، آثرت أن نمارس حبنا وحيدين ، فى كهف ، أو على قناة أو بين فرعى شجرة كثيفة الأوراق ، لكنها جرتنى عنوة ،قالت : أن لى هنا أصدقاء .. يمكن أن نمكث معهم .

شكت الغيرة قلبى ، سألت : ولم مع الآخرين .. أنا الذى يحبك .. أنا الذى آمرك .

النافرة المعذبة لم ترد ، مدت يدها فى نعومة إلى الرسغ ، وجرتنى، أنا حيالها ضعيف مغلوب ، لا أملك إلا أن أسير خلفها ، قاتلتى مازالت بمديتها الباردة تحز فى بقايا عنقى .

بعد الطرقة الثالثة خرج شاب ، رأيت فيه ملامح زميل قديم ، كان هو ، النحيل الضئيل ، رآنى ، تجاهلنى ، شدها من يدها ، وأغلق من خلفها الباب ، كانت يدى ممدودة من فتحة الباب العلوية بالتحية ، لم يسلم ، وذهب ، صرخت ، العجيب أنها لم تهتم ، ذهبت معه كمومس تعرف طريقها .

سمعت ضجيجاً بالداخل ، يبدو أن معه آخرين ، دقت يدى الباب بعنف ، دقت ، ودقت .. كانوا يحيطونها فى الردهة أمامى ، يقبلونها بتهافت ، ويرفعون ثيابها بلا احترام ، رأيت حتى سراويلها ، هى حبيبتى لا يرفعه غيرى ، العجيب أنها لم تظهر نفوراً .

اللعوب بالداخل ، أنا لا أقدر على فراقها .

خبطات يدى كادت تكسر الباب جاء الذى بملامح الزميل القديم ، كان عارياً ، ذهب نظرى للتو إلى ما بين فخذيه ، البغل نسى أن يخفى عورته ، زعق فى وجهى – عبر الباب – ماذا تريد ؟

فى ضعف أجبت : أدخل .

ودخلت إلى جوارها وقفت وحضنت كفيها : ماذا يبغون منك ؟

لم ترد ، عيونها حزينة ، يبدو أنهم أقوياء بما فيه الكفاية ، أو أن عادة أن تجئ إليهم أقوى منها .

رأيت فى ملامح الآخرين أصدقاء قدامى ، هم من كانوا ينافسوننى، أكرههم ، عوراتهم خارج سراويلهم ، خفتهم ، قلت فى نفسى: وقاحة .. لابد لهؤلاء أن يلقوا الموت على يد هاتين .

وأكدت : كل شئ يقع فى حينه .

مشت ورائى بإذعان ، واعتذرت بنظرة للآخرين ، بصقوا بصقاتهم نار تشبثت بظهرى ، لم أنظر ورائى ، همست : حبيبتى لم تفعلين ذلك ؟ أنت لى.

ونظرت فى خفر ، على السلم المظلم ، أدرتها بعنف ، هرست بأسنانى شفتيها ، وظفرت من عينى دمعتان ثقيلتان ، ونشوة تكثفت فى أرنبة الأنف ، لم أدر أن أظافرى هتــكت ثيــابــها من خـــلف ، وددت لو أضربها ، وفى أثناء ذلك تأتينى الذروة) .

* * *

- ٥ -

من الذى منحك اسمك ؟

السلطان الأيوبى الصالح نجم الدين أعطى اسمه للصالحية .

والعباسة أخت أحمد بن طولون أعطت اسمها لبلدة العباسة . والمقاول إبراهيم زقزوق ترك اسم عائلته للزقازيق . (وهبه محمد على الكبير هذه العطية لدوره العظيم فى جلب العمال الذين رفعوا على أكتافهم حجارة القناطر التسعة التى كانت سببًا لنشأة هذه المدينة الحديثة) المدينة الغلابّة التى كانت على موعد مع العصر الجديد ، فقضت على بلبيس العريقة ، سحبت منها الأوراق والأختام والموظفين والتجار والأعيان ، وكانت نشأتها فارقًا فى الزمان . غلقت على بلبيس أبواب التاريخ ، وفتحت لنفسها نوافذ ، ومهدت طرقًا نحو عالم المدينة المعاصر .

قطعت جيوش الغزاة الطريق بعيداً عنك .

كنت قابعة على أرضك السوداء إلى جوار النهر كامنة فى سذاجتك ، كأن الأمر لا يعنيك ، وأكتفيت بإرسال الخراج لمن غلب ، وتطهرت أرضك من دنس أقدام الجند ، تدور المعارك فى ساحات بعيدة ، تنصتين إلى عجيجها ، ولا ينتفض لك عرق ، فهل كنت عليمة بالنهايات؟

دومًا هناك فوق تلك الأرض قابضة على أذيال ثوبك البالى من ماء الفيضان ، وترفعين أقدامك خشية السقوط فى مهوى البرك والمستنقعات التى يخلفها وراءه .

هؤلاء أول القادمين ، إنهم الرعاة الذين اسمتهم كتب التاريخ الهكسوس ، هاهم يدقون أوتاد خيامهم من وبر على أطراف الصحراء ، بينك وبينهم مسافة كافية ، تكفل لك الحماية .

يمر قمبيز فلا يقف على أعتابك .

ويأتى الإسكندر من الغرب فتنأى عنك المسافات ، فهذه المرة يأتى الأغراب من الجهة المعاكسة ، وصارت أرضك طرفًا شرقيًا ، لا تطاله اليد ، فهل كنت بعيدة حقًا ؟

ويجىء يوليوس قيصر ، ثم أكتافيوس ، وتبدل أسماء المدن . هل حقًا كنت موجودة ؟ هل كان لك اسم ؟ أولدت فى زمن الفراعين أم فى عصر البطالسة ؟ هل كنت نواة قرية حينى كانت أرضك تسمي جاشان؟ هل منحك يهوه إلههم الدموى أسمك ؟

وجاء عمرو ليعيد للطريق الشرقى الحياة .

فأين كنت يوم عبر بجيشه ؟

قال التاريخ إنه استراح فى القرين التابعة لك .

مرة أخرى الصحراء تجئ ، والخشية من عبور الأنهار إلى الأرض السوداء "لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف " . هكذا نصحهم الخليفة ابن البادية ، هو يهاب الماء ، ويسعد بخراج الأرض "فلعمرى يا عمرو ما تبالى إذا شبعت أنت ، ومن معك أن أهلك أنا ومن معى ، فياغوثاه ، ثم يا غوثاه " ..

ويرد عليه عاملة "فيا لبيك ، قد بعثت إليك بعير أولها عندك ، وآخرها عندى .."

* * *

لويت رأسى جهة الباب لآمر الطارق بالدخول .

فدخلت أمى (ستلفظ أنفاسها الأخيرة بين جدران هذه الغرفة ، وعلى سريرى الذى يرفع بدنى الآن) كانت فى جلبابها الأسود تحمل صينية واسعة عليها أطباق الطعام .

- ضعيها على المكتب .

- ستتناول طعامك فى هذه الظلمة ؟

- بعد قليل سيحل الظلام بالخارج أيضًا .

* * *

النهر وسكة القطار وأنت بينهما تعافرين لتقضى على قدميك ، متوكئة على خطين ، خط من ماء وآخر من حديد .

ليس فى نشأتك غرابة ، فأنت لم تولدى بمعجزة ، ككثير من البلدان، فلا التففت حول ضريح ولى ذى كرامات ، ولا تخلفت عن ثكنة عسكرية فى موقعة مشهورة ، ولا قام على أرضك أثر [(١)] ينتهى إلى عصر من العصور ، بداية عادية لقرية عادية لا يسكنها سادة ، ولا منحها اسمه قائد من القواد .

لتاريخك سحنة نهرك ، انسياب ساكن ، لا يُسمع له هدير ، ولا خرير، لو ألقى الحجر على صفحة الماء لخرجت تستطلعين الخبر .

اضنانى البحث عن أصل لك فى الكتب القديمة .

طالعت قوانين الدواوين لابن مماتى ، وقرأت كتاب ياقوت "معجم البلدان فى معرفة المدن والقرى والخراب والعمار والسهل والوعر فى كل مكان " وقلبت صفحات البكرى " معجم ما استعجم فى أسماء الأماكن والبدان " وكتاب ابن الجياع " التحفة السنية فى أسماء البلاد المصرية".

وجدتك فى صفحة وحيدة من كتاب علماء الحملة حين قدموا مستطلعين رحلة "مويس" الذى يصب فى المالح بأقصى الشمال ، قال كتاب وصف مصر: على بعد ثلاثة فراسخ من بوباسطة ، وعلى نفس الشاطئ توجد مدينة صغيرة حديثة محاطة بغابة كثيفة من النخيل ، وعلى الرغم من أن اسمها كان مجهولاً من كل الجغرافيين ومن أنها لم تكن معروفة فى ذلك الجزء من البلاد الذى يعد متحضراً ، فإنها فيما يبدو كانت تضم سكاناً كثيرين كما كانت توجد حول أسوارها زراعة ممتازة ليست لدى البلدان

---

(١) اللهم إلا إذا اعتبرنا رؤوس الجمال والمساخيط الذهبية التى يزعم أهل البلد أن فلانًا عثر عليها فى زريبة من الزرائب أو فى جدار من الجدران القديمة لتبرير ثرائه المفاجئ أثرًا من الآثار الجديرة بالعناية.

المحيطة بها . والجزء من غابة النخيل القريب من السكان ، يزرع في شكل تخميسة "أربع في زوايا المربع وواحدة في الوسط " وبعناية تشبه العناية التي تلقاها الحدائق الأوروبية ، وتحاط المدينة بسور به فتحات يبلغ ارتفاعه خمسة أمتار وهو في حالة جيدة تعلوه أبراج قوية مسلحة بصف مزدوج من متاريس الطوابي .

وتعلو أبوابها التي صنعت بشكل أسطواني جزءاً من السور ، ويبدو سكان هذا المكان أكثر تحضُراً من جيرانهم ، ومنذ غادرنا النهر وجدنا الناس في كل مكان يحملون السلاح ، يسودهم روح من التمرد والضجر ، وفي هذه المدينة ، وعلى الرغم من أننا كنا- ربما - أول أوربيين يمثلون أمام ناظرهم ،خرج الناس في شكل جمهور ليقدموا لنا الأطعمة ولم نلمح من بينهم رجلاً مسلحاً .

وابتداء من ضواحي المدينة ، وحتى الجزء الأدنى من الترعة لاحظنا على الشاطئين وجود عدد كبير من الأبراج المبنية بلا أبواب ولا نوافذ والتي تخترقها بعض الطوابي ، وهذه الأبراج تستخدم كمأوى للسكان عندما يفاجئهم أو يلاحقهم عربان الصحراء فيصعدون إليها بسلالم من حبال .

* * *

- ٧ -

أفزعنى دخولك المفاجىء ، وأنت بقميصك الأبيض القطنى المبلل عند الصدر ، تدفع بذراعك الجافة كتل السواد التى تشدك من الخلف ، وضجت غرفتى بصياحك الذى أطلقته بعزم جسدك المحتضر فى النسوة المتشبثات بقميصك : دعونى .

أزحت صينية الطعام جانباً ، وأقلبت عليك لآخذ بيدك ، ارتخت ذراعك فى قبضتى ، وسرت أمامى طيعاً كطفل يتعلم الحبو ، رفعتك إلى سريرى بحذر ، واستجبت لى حين أملت ظهرك لادس الوسائد .

قلت لأمى التى وقفت تنوح مع النسوة : عودى بهن إلى الصالة .

- ألف سلامة عليك يا غالى .

ولوحن بمناديلهن نحوك وهن يسحبن أبدانهن الثقيلة إلى الخارج .

كنت تجاهد مع النفس ، يأتى الشهيق فتنفضه نفضاً ، ويعقبه الزفير فتنكمش حد التلاشى ، تركتك حتى هدأت تماماً .

واستعدت سلامك مع البدن الواهى ، قلت لى : عودتك يا كامل اطلقت بجسمى قوة الحصان .

- الحمد لله .

- سلَّمت أمرى لملاك الموت طالما سأموت بين يديك .

- اتمنى لك الشفاء والعافية .

- إنهم بالخارج يرجون رحيلى الساعة قبل الغد .

- متعك الله بطول العمر .

* * *

- ٨ -

أرانى أنا المنصور بن الشحات فى ليلة لا نجمة فيها ولا قمر . كنت فى الخص الذى أقمت جوانبه من سدد الغاب ، وعرّشته بالجريد والقش ، ووقعت عينى على الرجل ينحدر على الأرض باتجاه خيال المآتة المنصوب وسط الزرع ، كان ينحدر عبر الفضاء المفتوح من جهة ميدان المحطة .

كنا - فى ذاك الزمان البعيد - نراه مساحة واسعة خالية من الدور والمبانى المرتفعة ، تنتهى حدود الأرض المزروعة بالخضار ، بعيدان القصب التى تنغلق على الغموض والتوجس ، وكنت فى هذه اللحظة انتظر قدومها من نفسى الإتجاه ، فلم أرغب فى القيام إليه حتى لا يعطل موعدى المختلس .

كان لم يزل ينحدر على (ريشة) القناة المائلة نحو الأرض ، هذه القناة كانت تجلب ماءها من الترعة الموازية للسكة الحديد ، هل رأيتها ؟

ردمت قبل عام الوحدة بعام ، وبعد عام العدوان الثلاثى بعام ، فالسيارات بدأت تتردد بكثرة من العاصمة إلى مدن الأقاليم الشمالية ، والطريق القديم لم يعد صالحًا لاستقبالها ، واختنق مدخل البلد باعدادها الكثيرة ، فمدوا المواسير الضخمة تحت الأرض ، وجعلوا لها فتحات كغرف التفتيش ، وسيجوا شريط القطار بسور من الدبش الأبيض ، ليقل خطر الحوادث ، فكم من رجال وأطفال دهستهم عجلات القطار ، حين كانوا لا يحاذرون على أنفسهم عند عبور الشريط .

والساقية كنت تراها على رأس الحقل هناك ، بنفس الموضع الذى تشغله الآن محمصة البن : كانت القناة التى أروى منها أرض القصب فرعًا من قناة كبيرة تتفرع روافدها فى الأرض الواسعة التى كانت تشكل سفح التل القديم .

المهم أنى تجاهلت الرجل ، ولم انبهه لوجودى حتى لا يضيع على موعدى المنتظر ، وهو ظل سادرًا فى إقتحامه للأرض ، ويدنو من خيال المآته على ظن بأنه صاحب الأرض ، يدنو منه مادًا يده بثمن القصب : يا عم .. عم يا بتاع القصب .

والخيال قابع بمعطفه القديم ، وبيديه الممدودتين عن آخرهما ورأسه الكبير الملفوف بقماش بالٍ .

والرجل يقترب : عاوز قصب يا عم .

ولما صار قريباً جداً من الخيال اكتشف صمته الكئيب ، فدار دورة كاملة حول نفسه أدت إلى سقوطه على وجهه حتى سمعته يتفجر بضرتة عظيمة اهتزت لها عيدان القصب ، وقام على يديه ورجليه ، ثم هوى مرة أخرى ، وراح يهوى ويقوم فلم يصلب له حيل إلا وهو يغادر حدود الأرض .

ولم أتمالك نفسى ، فاستلقيت على ظهرى وأنا أقهقه على مشهد الرجل المرعوب ، ولم استفق إلا على شبحها الواقف على مدخل الخص .

كان أبى قد قال لى حين زارنى فى الخص ذات صباح فوجد فطيرة البارحة : والله يا ابن الخاسرة لتموت مسموماً ، فقلت له : خليها على الله .

وقص على حكاية العشيقة التى دست السم فى فطير المعشوق بعد أن لاقت منه الأمرين ، وراوغها فى الزواج بعدما وقع المحظور ، فقلت له: لكنى أريدها .

وكنا قد تقدمنا لأبيها ، فأصر على مهر لا يقل مليماً عن ستة عشرة جنيهاً ذهبياً ، ولم أكن أملك غير الخمسة عشر ، وأصر أبى على هذا المبلغ لا يزيد مليماً ، وتمسك أبوها بطلبه .

ونفض أبى نفسه من الجلسة غاضباً ، وقطعت عهداً على نفسى لتكملة المهر المطلوب ، نويت على الكدح ليل نهار ، على أن يمنحنى مهلة لا تقل عن العام ، وخلع أبى يده من الموضوع .

ولم تنقطع هى عن التردد على الخص ليلاً ، وقضينا أمسيات هنية بين سيقان الغاب وعريشة القش ، نخطط لأيامنا المقبلة .

دخلت علىَّ فى هذه الليلة – فوجدتنى على حالى ، تنطلق منى الضحكات غصباً كلما استعدت مشهد الرجل الهارب من خيال المآتة .

قالت : من يضحك لوحده يزور .

وضعت صرة الفطائر جانبًا ، ومالت علىَّ بجزعها فضممتها إلى صـــدرى بشوق لا ينفد ، وانتشر فى المكان فوح الفطائر السمة ورائحة السمن البلدى مخلوطًا بالعجين الذى استوى على مهل فى نار الفرن المقدوح بحطب الذرة ، واقترنت لدى هذه الرائحة بليالى الغرام الأول ، فهى تستعيد لى عنفوان الصبى المنقضى ، فهل لها من استعادة ؟ أم أنها ترسبت هناك فى قاع الذكريات البعيدة ، وصارت المستحيل ذاته ؟

قلت لها : هانت يا أمينة ، على آخر الموسم يجمعنا السقف الحلال.

قالت إن أباها يبذل كل الجهد لخلعه من دماغها، وهو عليم بأن جهده هباء ، وأمى تصده قائلة له لا تحاول هى له وهو لها .

- هل تعلم بمجيئك إلى هنا ؟

- ومتى رأيت أمًا نرضى لابنتها الزيارة الليلية لشاب يتكلم عنها ؟

- هذا صحيح .

- هى تنام بعد صلاة العشاء مباشرة ، وأبى يخرج ليتمم على خفرائه .

- وأنا مطمئن أنه لن يأتى خصى أبدًا .

- سيعود إلى السهر معك ليشرب شايك الحبر إذا وفقنا للزواج .

- ربنا يسهل .

- إن الأمور تتعقد خاصة بعد أن انضمت إليكم أختك وأولادها .

وكانت أختى الكبيرة قد انتقلت إلى دارنا بعد مصرع زوجها ، طاحونة ديمترى لم تكتف بفديتها الأولى ، ذلك الصبى الذى التهمه السير من يد أمه ، وهمدت قلوب الناس عقب الحادث وقالوا ها هى الطاحونة تنتقم لنفسها . هذا الكافر جحد حقها فى الفداء ، فكظمت غيظها ، وتركته يعمل ، يدير آلاتها ، ينقل الحركة من الوابور إلى السير

الذى يتمطى تحت (السندرة) من حجرة العدة حتى القادوس لينقل الحركة إلى الحجر الصوان المنقوش ، دارت الطاحونة ، ولم تعلن عن حاجتها أبداً ، وكان الناس كلما سمعوا صوت العادم تقذفه خارجها فى كتل دخانية داكنة يقولون هذا هو نداء الدم . إن الطاحونة تطالب بحقها حتى كانت تلك الظهيرة الحامية ، حين غافلت الأم الذاهبة لطحن غلالها فخطفت الولد من يدها ، التهمه السير الشرس ، وهرسه تحت أسنانه ، طوى الجسد الصغير تحت لسانة المطاطى الأسود ، وراح وجاء بين الطارات ، ثم لفظه قطعاً من عظام ولحم فوق الأرض المنداة بالزيت .

واضطر ديمترى إلى بيع الطاحونة لعائلة زوج الأخت الذى امتلك سهماً مع اخوته ، هؤلاء الأخوة الذين كانوا يعملون عند ديمترى ، فتعلموا الحرفة الجديدة ، فنقلتهم من شقاء الفلاحة إلى ترف الجلوس على دكة الميزان ، وعلى كرسى الطحان .

ودخل زوج الأخت ذات صباح ليرفع السير من الطارة المتحركة إلى الطارة الساكنة ، فما أن ثبته على الثانية حتى لفعه معه ، فدارا سوياً ، بعدها جمعوه عجيناً أحمر فى جوال قديم .

وعلق أهل البلد قائلين : الملعونة أخذت فداء المشترى الجديد ، قلت لها : رزقهم على الله .. ولكن لن أكف عن المطالبة بحق هؤلاء اليتامى من أعمامهم .

وسألتنى : ماذا ستفعل لمواجهتهم ؟

– المشكلة ليست معهم .. المسألة فى يد الأخت .

– كيف ؟

– إنها تخفى الورقة التى تثبت حق زوجها فى الطاحونة ، وتخطط للإستقلال بحياتها والعيش بما سيمنون به عليها ، وأنا أريد استغلال هذا الحق فى المطالبة بحقوق أبى أيضاً .

– أبوك !!

- إن له دينًا عندهم ، وهم يماطلون ، سأخوض المعركة معركتين ولن ارتاح حتى تئول هذه الطاحونة لنا ، يكفى العمل فى أراضى الآخرين ، أحلم بأن تكون لى أرضى ، واحلم أن أتعلم حرفة أصحاب الطواحين ، ليكون لى ملكية الأرض والطاحونة .

وانطلقت الرصاصة فاغتالت الصمت ، ونثرت أشلاء خيال المآتة بين خطوط الزرع ، خيل إلىَّ أن القمر قد أنطفأ ، وانطمس المكان تحت ظلمة أشد حلكة ، لم تمنعنى من رؤية شبح الرجل الذى جاءنى أول الليل يطلب قصبًا ، كان فى زيه الرسمى يعتمر لبدة الخفير ، ويحمل بندقية الخفير ، ويشير للرجل الآخر نحو المكان ، تقدم الرجل بعد أن عاد الخفير إلى دركه ، كان يتوجه باتجاه الخص مصدرًا بندقيته أمامه ، وصاح : أخرجى يا أمينة .

همست إلىَّ : هذا أبى ، واندفعت لتحمى جسدى من رصاص بندقيته ، وقفت أمامى فاردة ذراعيها ، وخرجنا أنا وهى من الخص لنواجه الأب .

- تعالى يا فاجرة .

تمالكت نفسى وقلت متحديًا : اردتها على سنة الله ورسوله .

لم يجب على كلامى ، وسحبها من كفها ليدفعها أمامه ، وقبل أن يعبر القناة الجافة التفت نحوى ليقول .

- تأتى فى الغد لتطلبها شرعًا .. لا يهم الجنيه .

* * *

- ٩ -

كم مرة بست هذه الأرض يا كامل ؟

مائة مرة ، ألف مرة ، مليون مرة ، مرات ، لا تحصى ، ولا تعد ، هل يحفظ المرء خطوات أقدامه ؟ الذاكرة تمتص ، وترسب ، وتبقى من الواقعة صورة أو صورتان ، ليس من الضرورى أن يكون عدد الخطوات موحداً فى كل الأمكنة ، ولكنها بالتأكيد تكثر فى مواقع الحنين ، وتبهت فى مواقع النأى ، واللاضرورة . مركز العالم هو مسقط الرأس ، وما عداه هو مجرد دوائر تلتف حوله . الدائرة الأولى الأكثر اتساعًا هى الأضعف فى التذكر وكلما ضاقت الدائرة تتكثف الذكرى حتى الوصول إلى النقطة التى لا قطر لها ولا محيط ، إنها بؤرة الميلاد ، مساحة الحبو ونطاق القيام للإستناد على أول جدار ، منحة الضوء الأولية واللقاء الذى لا ينسى بلمسة النور الحانى ، السعى إلى الكتاب ، الطريق إلى المدرسة ، الدرج الذى يأخذك للصعود إلى مئذنة الحى لترى الدنيا الواسعة ، من فوق ، من أعلى مكان ترى فيه الأسطح وأبراج الحمام ونؤابات النخيل ، وفضة النهر السائلة فى أقصى الطرف الغربى. التردد على الحى الجديد الذى انتقلت إليه الأسرة حين ضحكت الدنيا للأب ، فضاعفت رزقه ، ليخرج من عتمات دار العائلة إلى بيته الذى صبه قوالبه من طين الأرض التى فاضت به كما تفيض عادة بخيرها العميم .

ما بين الحيين كانت الخطوات ..

وكان خروجى فى هذه الساعة ، اقف قليلا على عتبة الباب ، اِستطلع وجوه المارة ، إنه موعد العودة من الحقول ، الحمير ترفع الأحمال ، يجلس عليها أولاد يمسكون بحبال دواب لا تخفى بهجة العودة بعد أن امتلأت بطونها وأرتوت من ماء الترع ، عفرة قليلة تنتشر فى المكان ، وزخم روائح المغربية هو خليط من أنفاس الماشية ونبات الأرض ، مزيج من عبق الزرائب الخصبة بالروث الطازج وزفير الإنسان الآكل للخبز ونواتج الألبان .

اقطع الشارع المفتوح عليه بابنا ، لأدخل الشارع الفرعى . على هذه الناصية ، بل فى هذه الزاوية بالذات ، كان يجلس التركى يقول أبى إنه كان يأتى كل صباح بكرسى الخيزران ، ليحط عليه بدنه الممتلىء ، تحت ظلة هذا البيت القديم ، دائمًا يختار الظلة .

لأنه لا يستطيع أن يفتح عينيه فى النور ، يضع الساق على الساق راميًا ظهره إلى الخلف ، كتلة تشع البياض ، الجلباب ، وشال العمامة ، والنعل ، وعظمة المنشة المصنوعة من ذيل حصان ، يبرم شاربه الناصع من طرفيه ، وينتظر النسوة الذاهبات إلى الطاحونة ، فيخرج من جيبه عملة فضية كبيرة ، ويشير إلى المرأة التى يهتز بدنها تحت ثقل الطحين.

– بارة .. تعالى ... بارة .

هو لا ينوى القيام ، ولا يخطر بباله أبدًا أن يصحب أمرأة إلى بيته، حيث يعيش وحيدًا ، يكتفى بهذه الإشارة ، وحين تمرق المرأة من أمامه، وتختفى وراء سور الطاحونة ، يعود بظهره إلى الخلف ، ويروح يهش الذباب عن وجهه ، بانتظاره امرأة أخرى ، هو لا يختار واحدة بعينها ، لا يفكر فى الجمال ولا فى القبح ، يكفيه أنها امرأة ، أية امرأة ليميل بانحناءة خفيفة إلى الأمام ، ويشير بعملته الفضية : بارة .. تعالى .. بارة.

أما أنا فقد عاصرت المرأة التى سكنت بيته ، رأيتها دائمًا وحيدة ، كانت زوجة لموظف ، أتى بها إلى البلد ، حين دعته الضرورة للحاق بعمله ، انجب أولاده هنا ، وانهوا تعليمهم فى مدارسنا ، ثم غادروا إلى الدنيا الواسعة ، وتركوا الأم والأب وحيدين ، ثم كان على الأب أن يلبى نداء ربه ، فانتقل إلى العالم الآخر .

كنا لا نرى هذه المرأة فى سالف الأيام ، وفجأة خرجت على الناس بطشت كبير ، وزعت فى مساحته القلل البيضاء النظيفة ، تقعد من الصباح الباكر على عتبة الدار ، وأمامها الطشت يضوى الضوء فى القطرات المخلوطة بماء الورد من حلوق القلل .

مشاوير البلد عادة لا تجلب العطش ، وفكرة الثواب بشربة الماء مسألة هينة ، فيكفى للغريب أو لأحد من أهل البلد أن يميل على أول باب فيطلبها ، لهذا فإن الكثير من المارة كانوا ينحنون على قللها ، جبر الخواطر ، والثواب على الله .

وكانت هى تتابع الشارب ممتنة ، وتلمع عينها بنور البهجة وبعد أن ينتهى يقول : بالهنا والشفا .. تفضل يا خوى .. تفضل .

فلا يملك غير الدعاء لها ، ويتركها فى حال سبيلها ، وتحاول مع النسوة الشاربات ، فتدعوهن للجلوس إلى جوارها ، فى ظلة دارها ، ولكنهن دومًا على عجلة من أمرهن فتضع الواحدة منهن القلة ، وتفر إلى بيتها محملة بما اشترت من خضروات السوق .

أيام كثيرة انقضت ، فقدت فيها القلل رونقها ، وكلح لونها وبانت على أجسادها علامات الأيادى ونشع فى مسامها الريم الأخضر ، وانقصفت رقاب البعض منها ، وانشرمت حلوق البعض الآخر ، ومضت فترات طويلة توزع القلل فى الطشت وهى جافة فارغة من الماء ، والمرأة على عتبتها مكبة على كهولتها ، تحت طرحة قذرة ، كانت يومًا تضىء الوجه ببياضها .

لم يلتفت أحد إلى إختفاء القلل ، ولا اختفاء المرأة التى انغلق عليها بابها الخشبى القديم ، وظن البعض أنها ربما سافرت إلى أولادها ، أو أن أحدهم عاد إليها فأخذها لتعيش معه حتى يحين قضاء الله ، ولابد نافذ.

وعلى غير توقع انفتح الباب ، فى اللحظة الفارقة بين الليل والنهار وخرجت فى ثياب مهلهلة قصيرة تمشى فى الشارع حافية القدمين ، حسيرة ، قصت شعرها تمامًا فبدا رأسها صغيراً جداً ، وتسيطر عليه رعشة لا إرادية ، تذبذب سحنته ، وتدفع حدقتى العينين للإهتزاز .

رأيناها تسير تحت الجدران تنظر إلى الأرض وتنحنى على أكوام القمامة ، تقلب فيها ، وتخرج منها ما تجده مناسبًا ، فتجمعه فيها تبقى من هيئة الثوب ، وترفع مقدمه فتبان أفخاذها ضامرة ، وحين يكثر حملها من أشياء الأرض تطوى بقية الثوب ، فتبرز

بسوءتها ، ولا يملك الجالس أمامها غير أن يمسكها من يدها غاضًا بصره فى حياء : تعالى يا حاجة .

ويدخلها دارها ، ويـــغلق عليها الباب ، وهو حـــين يحاول ذلك لا يستطيع الإفلات من قبضتها المخلبية ، فهى تسحبه إلى الداخل : أدخل .. سأطبخ لك . وعندى فراش نظيف . فيملص نفسه منها عنوة ، ويعود، وهو يضرب الكف بالكف صارخًا .

فيمن حوله : يا أخوانًا حد يبعت لأولادها .

وانغلق الباب هذه المرة ، وطال غلقه ، فارتاح الجيران وتعشموا فى أن تستعيد حالتها من سمت الوقار والمهابة فمظـــهرها الأخـــير لا يسر عدواً ولا حبيباً ، بل هو وصمة لكل من يعيش حولها ، كيف تترك على هذا الحال ! وكيف يمكن التصرف معها ! ولا أحد لديه الرغبة ولا الطاقة فى أن يستضيفها فى بيته حتى يظهر ولد من أولادها .

ولكنهم اضطروا لإقتحام الباب وتحطيم ضلفتيه حين انبعثت الرائحة ذات صباح صيفى حار ، ووجدوها فى حجرتها ممدة على ظهرها ، وقد تحللت هلاهيل الثوب ، ذلك أنها لم تحتمل انتفاخة البطن الذى تبعج إلى آخر طاقة العضل فيه .

الآن انحدر إلى الأرض التى زرعها أبى قصبا فى سنى شبابه الأول.

لماذا القصب وهو من زراعات الجنوب ؟ لا أدرى . لم أعرف أحداً زرع القصب بعده ، ربما بعد أن نظمت الزراعة وصار لها دورات امتنعت عليه أرض الدلتا .

هذه الأرض لم تعدل فارغة كما كانت فى الزمن الغابر ، قسمت إلى شوارع ، وقامت عليها عمارات شاهقة تؤجر شققها للأغراب ولأبناء البلد من الجيل الجديد .

رأيتها وهى مسيجة بسور من الحديد والسلك الشائك ، نطل من حواجزه على أشجار المانجو والجوافة والبرتقال ، تأخذ ماءها من قناة محفورة تحت الأرض ، لها فتحات ضيقة موزعة على مسافات من الشارع ، كانوا يحذروننا من السقوط فيها ،

وكنا نبص من الفتحة لنرى الماء الجارى يسيل رقراقًا وصافيًا ، نمد إليه التصنع موجات صغيرة ونسقط فيه قرش السوق الذى نحصله من الطاحونة ، فيستقر فى القاع الرملى ، وتراه العين تحت الماء السائل ثم نعود لرفعه ، نمسحه بذيل الجلباب ، ويظل فى القبضة العرقانة حتى ندفعه لصانع العسلية أو للبقال ليبيعنا كرملة "ندلر" أو بسكويت "ايكا" .

وسمعنا عن حفيظة التى قتلها صاحب الحديقة حين تجرأت على النزول من سطح بيتها القريب ، وضعت السلم النقالى فى ظهر الجدار ، فى اللحظات الأخيرة من ساعات الفجر ، وقبل بزوغ الشمس بقليل ، فزوجها المريض قضى الليل بطوله ، ينازع ويخرج من فمه الخالى من الأسنان أصواتًا مبهمة ، وحين جمعت أصابع يدها على أذنيها ، ومالت على فمه لتصيخ السمع أتاها الصوت جليًا : مانجه .. حبة مانجه .

وربتت على صدره بحنان مطمئنة إياه : والله لتكون عندك الصبحية وجمعت بقايا قوتها فى الجسد العجوز ، وعقدت العزم على تلبية طلب الغالى : ربنا يسامحنى .. الرجل ليفطس ونفسه فيها .

زحفت على درجات السلم الخشبى حتى وصلت نهايته ، ثم نامت على بطنها لتسحبه إلى أعلى ، وجرته على القش لتدليه بهدوء من الخلف حيث ظهر الدار المطل على الحديقة ، وسارت خفية إلى أن عثرت على شجرة المانجو العالية ، ومالت على الأرض لتجمع حجارة تعاونها فى قذف الثمرات الناضجة ، فأحدث ذلك جلبة سمعها صاحب الحديقة وكان قد ترك قريته البعيدة ، وأقام لنفسه خصًا صغيراً كى يرقب لصوص الفاكهة ، لأنه لاحظ أن أشجاره تنهب بلا رحمة ، وكان قد قرر بينه وبين نفسه ألا يترك من تقع عليه يده ، صغيراً كان أو كبيرًا ، وحلف أنه سوف يصور قتيلاً فى هذا البلد ، بعدها وحين يفلح فى الإمساك بأحدهم فسيشفى غليل صدره ، ويرتاح ، ثم يشرع فى بيع هذه الأرض، ويعيش فى قريته مبجلاً ، ولا ينزل هذا البلد الجائع أبدًا .

فى هذا الصباح ، كان قد انتهى من صلاة الفجر حاضرًا ، ومكث فى خصه ينقل لقيمات صغيرة إلى فمه ، وعندما سمع صوت انحدار السلم على الأرض توقف

عن المضغ ، فسمع الأقدام تخوض فى الحشائش الندية ورأى الهيكل النحيل يميل على الأرض ويحدف الطوب بدأب ، فقام وبيده وعكازه المعقوف ، يمشي بحذر ، ويخفى جسده خلف كل جذع يلقاه ، الرؤية لم تكن واضحة بعد ، وبخار الماء يتلقب على سطح الأرض كأنه ماء يغلى ، وعيناه الكليلتين لم تسعفاه على تحديد السارق ، ولكنه حين وصل إلى أقرب جذع ، صرخ بعزم قوته: أنت يا ولد .

فطبت حفيظة ساكتة على الأرض ، فخيل إليه أن اللص يراوغ ، ينام على بطنه ليزحف إليه فيتمكن من ساقيه ، فكان لابد وأن يبادره بضربة تعجزه ، فضربها بطيش فى الجسد العجوز ، صائبة فى الحجر القريب الذى تزحزح عن مكانه – وكان أبدى الركود – مندفعًا إلى الرأس الحسير ، فأنهى ... نبضاته الواهنة ، وكانت توهم صاحبته بالقيام .

فى زمن لاحق ابتاع ابن حفيظة الأرض ، وقسمها قطعًا ، كل قطعة مؤهلة لتأسيس بيت ، أبقى لنفسه قطعتين ، أقام على إحداهما بيتًا وعلى الأخرى حظيرة لماشيته ، وظل أبوه – الذى عاش بعد رحيل زوجه – وحيداً فى داره ، كان سعيداً لنجاح ولده ،، كما كان حزينًا ، لأن مجلس المدينة أجبر ولده على ترك مساحة من الأرض تتسع لبناء بيت ، هذه المساحة خصصت لشارع يتوسط الأرض ، إذا اغلقت تبقى البيوت داخل الأرض ، حارة سد .. لا منفذ لها.

وكان يأتى كل صباح إلى المقهى الذى فتح على رأس الشارع يتخذ لنفسه كرسيًا على الناصية تاركًا جسده للشمس ، ويحكى لمن يصادفه الجلوس على نفس الطاولة إن مساحة الأرض التى نجلس عليها الآن هى ملك لنا ، نهبتها الحكومة نهبًا ، إننى أستطيع – لو أردت – إجبار ولدى على غلقها ، ولكن ماذا يفعل الآخرون ؟ هؤلاء السكان الذين هبطوا علينا من كل النواحى ، إنهم أغراب ، وضيوف على بلدنا ، وينبغى إكرامهم ، ولكن – لو أردت – استطيع أن أقيم سوراً من الحجر المسلح ، فنسد الشارع ، ولا يهمنا حكومة ولا غير الحكومة . أقول لك إنها ملك خالص لنا .

كل صباح يأتى زاحفًا من داره القريبة ، مائلاً على عصاه ، ليقتعد نفس الكرسى ، فى نفس البقعة ، ولا يطلب لنفسه طلبًا أبدًا ، فهو يعتقد أن المقهى قد أقيم على أرضه ، ولا يحق لصاحبه مطالبته بشىء ، مما سبب إزعاجًا شديدًا للقهوجى ، وكان يشير للمتحلقين حول الرجل بأصابعه الململوة إلى جانب صدغه ، دلالة على ألا يتخذوا كلامه جداً ، فالرجل - قد بلغ من العمر ما يدفعه إلى الخرف والعيش فى أوهام لا تناسب أهل هذا الزمان ، فكان يصهين عليه ، ويفوت له الكثير من شخطاته وأوامره حتى فاض به ذات يوم ، فنزل إليه من النصبة وواجهه: كفاية يا آبا .. صدعت دماغنا .

فلعن الرجل سنسفيل أجداد القهوجى ، ولم يترك كلمة من قاموس المعايرة ، إلا وذكرها دون تردد ، والناس تجمعت حول القهوجى : زى والدك.

- والدى سافل وقليل الأدب!!

واستطاع الكهل أن يرفع عصاه ليدفعها فى بطن القهوجى مما سبب ألمًا شديداً ، فجن جنونه ، واندفع إليه ليرفعه عن الكرسى : لا أرى وجهك هنا أبدًا ..

- تطردنى من ملكى يا عويل .

سحب القهوجى الكرسى إلى الداخل، وتوجه بحديثه إلى الناس مغضبًا : كل واحد يروح لحاله .

بينما ظل الرجل فى جلسته على الأرض ، تحت حائط المقهى ، يلعن الزمن الذى جعل مثل هذا الصايع يرفع عينه على أسياده .

ثم أعتاد المجىء كل صباح إلى نفس المكان ، ويفرد حصيراً صغيراً ، يأتى به تحت إبطه ، ليتمدد عليه طول النهار ، وكلما أرى أحدهم مقبلاً من الشارع الرئيسى ، أو من الشارع الفرعى الذى كان يومًا أرض القصب ، ثم صار حديقة للفاكهة ، وهو الآن حارة على صفيها بيوت وعمائر ، يطلق الرجل هتافه ليؤكد للجميع : أنا قاعد فى ملكى .. حد عنده مانع ؟

ينفتح أمـامى الطريق ، فـأرى الميدان ، ميدان المحطة ، يهبط من علٍ ، بارتفاع يحسه القادم من جهة البوابة يندفع دون إرادة منه نحو العمود الخالى الذى يتوسط الميدان .

بعد أن نقلت بيوت عمال الدريسة المشيدة بحجارة بيضاء كبيرة إلى خارج البلد ، ورفع السور الحديدى الملتف حولها ليحميها من اصطدام السيارات ، اتسع الميدان ، وقسم المدخل إلى طريقين ، وغرست فى المنتصف نباتات زينة خضراء ، جعل هذا العمود كقاعدة لتمثال منتظر .

وكنا نتساءل فيما بيننا هل فى تاريخ بلدتنا من يستحق هذه القاعدة ؟

لم نجد فى تاريخها الخاص ابنًا من أبنائها ، أو حتى من أبناء القرى التابعة لها من هو جدير بها .

فظلت خالية بانتظار الشخص المجهول .

اتسع الميدان إذن ، وتوارى عنه الكثير من معالمه القديمة ، دكان (أبو الخير) للحلاقة ، كانت له فراندة ، لا تمل الجلوس عليها ، يجلس الرجل الكبير على دكتها ليراقب الخلق ، الرائح والغادى ، المسافر والعائد من سفره ، حركة القطارات القادمة من الجنوب أو العائدة من الشمال ، إلى جواره يجلس ولده ، لا يقوم حتى يصل الزبون ، سواء من يريد الحلاقة أو من يحتاج العلاج ، وفى هذه الحالة يربط أهل القرى مطاياهم فى العمود القريب ، ويدخلون مع الرجل الكبير غرفة على الناحية المواجهة للمحل ، فيعطيهم الإبر أو يمس لهم عيونهم بالمراهم أو بالششم ، أو يغير لهم على الجروح ، فيرفع الضمادات ، ويضع القطن المغموس بالمكركروم أو بصبغة اليود .

حين رحل الرجل الكبير ومضى زمانه بقى ولده وحيداً قليل الحيلة فيما يختص بالعلاجات ، لا يجيد غير الحلاقة ، كما أن لافتات الأطباء انتشرت على الشرفات ، وفى كل الأحياء .

وكان جالسًا يومًا على دكة أبيه ، ورأى واحداً من أهل القرى يربط دابته فى العمود ، فقال لنفسه : أما زال هناك من لا يعرف برحيل أبى!! ترك القروى المرأة العجوز فوق الحمارة ، وتقدم منه .

– عدم المؤاخذة .. أمى تشكو من عينيها .

– ولكن ..

– البركة فيك ، أهلنا كلهم لا يشفون إلا على أياديكم .

واحتار ابن الحلاق ، فالغرفة الصغيرة التى أستعملها أبوه كعيادة خاصة به ضمت إلى ميراث أخيه ، وشيد مكانها عمارة ذات طوابق ، ولا يملك فى يده ما يعالج به هذه القروية ، والرجل لم يكف عن الدعاء له، واستجدائه فى تخليص الأم العجوز من آلامها ، فأهل قريته أجمعوا أن لاعلاج لها لدى الأطباء ، علاجها هنا فى دكان الحلاق ، أكدت ذلك خبرتهم العريقة وممارستهم مع الأب الفقيد .

وأدخلهم ابن الحلاق دكنه ، ثم سحب الموسى خفية وخرج به إلى العمود الذى يرفع واجهة الفراندة . حك الموسى فى الكلس الأبيض ، فانهال على الورقة الصغيرة التى أمسكها بين أصبعيه ، طوى الموسى ثم أعاده إلى جيبه ، ولف الورقة على هيئة حجاب .

– شوف يا أخ هذا الدواء تأخذ منه على قدر معلقة الشاى وتنوبه فى الماء جيداً ثلاث مرات فى اليوم ، وبالشفا إن شاء الله .

عاد الرجل إلى قريته ، وعاد ابن الحلاق إلى دكته ومر يوم ويومان، وفى نفس الموعد ، عاد إليه القروى ، ولكنه – هذه المرة – جاء ممتطياً حماره ، تتقدمه سلة كبيرة يغيطها الباشكير ، رمى عليه السلام قبل أن ينزل عن مطيته ، وقام ابن الحلاق يعاونه ، فكاد الرجل يميل على يده ليقبلها .

– الحمد لله .

ذهل ابن الحلاق ، وسأل بحذر .

- يعنى الحاجة قامت بالسلامة ؟

- فى إيدك البركة يا ابن الناس المباركين .

وراح يفرغ السلة ، فانطلق منها ذكر بط كبير فرد جناحيه العظيمين ودخل الدكان مهللاً ، ليثير زوبعة من الشعر والغبار ، وهناك فى آخر زاوية من الدكان نام على بطنه ، كأن أحداً أوصاه بهذا مسبقًا.

الليل حياة خاصة فى هذه البلدة ، فهو لا يملك غير التسكع فى شوارعها الترابية المدحرجة ، المقاهى القريبة من المحطة تكتظ بالرجال ساعة أو ساعتين ، ثم ما تلبث أن تفرغ عقب المسلسل اليومى ، أما المقاهى المتناثرة فى الشوارع الداخلية ، فإن لها زبونها المستديم ، يشرب الطلب أو الطلبين ، ثم يؤوب إلى داره مبكراً ، قد يلعب الدومنو أو الطاولة أو يدخن المعسل ، ولكنه - فى كل الأحوال - لا يطيل السهر .

المسافر العائد بقطار العاشرة مساءاً دوماً يفجؤه السكون عند نزوله على رصيف المحطة ، بينما أذناه تدويان بصخب المدن التى قدم منها ، فالبلد هجعت جميعًا، والمقاهى أغلقت أبوابها عدا هذا المقهى الذى يواجهنى الآن .

أبوابه مفتوحة مباشرة على بوابة المحطة ، وهو أول ما تقع عليه عين الغريب ، كان يوماً محلاً لبيع النحاس ، كنت ترى صاحبه يقتعد كرسيًا بالداخل ، يقلب أوراق الصحيفة التى لا ينتهى منها أبداً ، يمد وجهه بالنظارة كعب كوباية ، ويظل يطالع سطراً سطراً ، كما كنت تراه واقفًا فى استقبال العربة الكارو ، المحملة بالرجال والنسوة والعيال الصغار ، جاءوا لابتياع أوانى العرس صاخبين بالزغاريد ، يدقون على طبلة كبيرة ثبتتها إحداهن على جنبها بينما تحلق الآخرون حول صبية لا يهمد بدنها من الرقص ، يقف تاجر النحاس بعد أن يضع صحيفته جانبًا ، يستقبل زبائنه بوجه بشوش .

- ربنا يتمم بخير .

ويتقدم كبير القوم رافعاً عباءته على كتفيته فيسلم عليه ، ويتخذ لنفسه مقعداً إلى جوار المكتب المرتفع عن الأرض ، وتشق أم العروس الزحام لتقتحم المحل ، لتكون فى مقدمة المشترين ، وتتخـير لابنـتها ما يؤسس بيتًا جديداً .

أميل إلى اليمين لا دخل العمارة الصغيرة التى صفت أدوارها صفًا كأنها علبة الكبريت موضوعة على جنبها ، قفزت فوق غطاء المجرور الذى فاحت رائحته فى المدخل ، وتهيأت لصعود درج طويل لا تقطعه غير بسطة وحيدة ، وانحنت النسوة الجالسات على الدرجات ، واخفين أطفالهن الرضع ، تحت نور أصفر شاحب ، يؤكـد المرض ولا ينفيه ، أما النور الحليبى الواضح فكان ينبعث من أعلى ، يتدفق من باب الشقة على وجوه الرجال الذين ردوا على تحيتى بهمة وحماس .

حين رآنى التمرجى قام عن منضدته مرحبًا ، وبدل سحنة الرجل المهم الواقف بين رعاياه ليضع ملامح خنوع متكلف ، غرس القلم أسفل الطاقية ، وفرك كفيه محييًا .

- أهلا يا بيه .

وطرق الزجاج المضئ لباب غرفة الكشف ، وادخل رأسه لينبئ الطبيب بقدومى ، ولمحت بطرف عينى الفخذ العارية للمرأة النائمة على منضدة الكشف ، فعدت بظهرى إلى الوراء .

- سأنتظر هنا حتى تنهى ما بيدك .

بعد فترة وجيزة خرجت المرأة من غرفة الكشف وهى تلقى نحوى نظرة بطرف عينها من تحت طرحة جمعتها على معظم وجهها بينما سار خلفها رجلها عاقداً حاجبيه فى غضب كظيم .

تلقانى الطبيب فى حضنه ، وسحب لى كرسيًا مبطنًا بجلد أسود ضغط على الزر ، فاقتحم نور الحجرة المبهر رأس التمرجى ، قال له الطبيب :

- لا تدخل أحداً الآن .. واعمل اثنين شاى بسرعة .

– أنا لا أريد أن أعطلك عن عملك .

– يا سيدى .. نحن لا نراك إلا فى ..

– الكوارث .

– أظنهم أرسلوا إليك لتحضر الوالد .

– عرفت أنك تتابعه .

– ليس هناك مرض بالتحديد إنما هى الشيخوخة ، كل شىء قد انهار.

– لا فائدة .

– يوم أو يومان بالكثير .

وأعدت الكرسى إلى مكانه ، وتهيأت للخروج .

– بدرى .

– خلص شغلك على أن تمر على قبل عودتك للبيت .

– لازم .

* * *

رأيته خارجًا من الركن المظلم ونور المقهى ينعكس على زجاج نظارته السميكة ، هو نفسه بجرمه الضخم ، يعتمر عمامة كبيرة يلتف شالها على طاقية من قماش أبيض ، يتهدل على بدنه جلباب واسع الأكمام ، رفع كفه القابضة على الجريدة ، وتقدم منى وهو يجرجر حذاءه الجلدى الكبير ، فزعت منه وكدت أعود إلى الباب ، ولكن سحنته الوديعة امحت الخوف عن قلبى ، فلبثت فى مكانى مشلول الحركة ، مال على أذنى وهو يطبطب بيده على ظهرى : ألف سلامة للوالد .. قل له واحد صاحبك يسلم عليك .

واختفى الرجل من أمامى فجأة ..

ولما استشعرت الدم يموج بشرايين جسمى بدأت احرك قدمى فى خطوات متقاربة ، مذهولة ، لولا دبيب الناس من حولى ، وأصوات التليفزيون والمذياع ما صدقت أن الحياة تدب فى كيانى .

جزعت من دخولى الشارع الآخر الذى يعود بى إلى دارى ما إن استعدت شجاعتى ، وسيطرت على رهبة المكان من حولى حتى انتفضت للواقف فوق مرتفع من الأرض ، تحركت عباءته السوداء ، فبان منها بياض الجلباب ، والعمة ، وبوز البلغة .

هبط إلى الأرض متجهًا إلىّ ، وشعرت بكفه الباردة تدهمن تنحنح ثم أخرج صوتًا وقورًا : إرادة الله فوق كل شئ ، لقد عملت ما قدرنى الله عليه ، اعطيته الإبرة ، وتركته هناك غافيًا . ومس بأطراف أصابعه شاربه المضئ ، وعاد إلى مكانه ، وتلاشى فى الباب المغلق لصالون الحلاقة .

إنهم يبعثون ، جاءوا تحت جنح الليل ، يلقون النظرعلى رجل منهم، شوارع البلد تمتلئ بهم ، ولا فكاك منهم ، يبدو أن أرواحهم المعلقة بحياة الأحبة هنا لا تكف عن الحومان فى مواقع الحنين ، هل استدعاهم؟ أم عادوا ليحتفوا بالتحاقه بهم ..؟ أدركت فى هذه اللحظة أن أبى معهم ، لم يعد بدنه متصلاً بنا ، استحال إلى روح ، تقيم لفترة مؤقتة بيننا حتى يحين موعد الأوبة النهائية ، بل أدركت أنه ربما يكون قد فارقنا الآن .. إنهم يتوزعون فى الأركان لمراقبة شئ ما ، تدركه أرواحهم ، ولا علاقة لنا به ، حثثت الخطى لعلى ألحق به ، فأراه ويرانى قبل أن تغمض عيناه على الظلمة الأبدية .

ووجدت صاحب الأرض التى كانت بستاناً جالساً على عتبة بيت ولده ، رفع رأسه نحوى ، بعد أن أفاق من تأملاته ، ثم نفض جسمه ، فقام فارهًا ، يرتدى جلباباً ،على اللحم مفتوح الطوق ، ومفكوك أزرار الكمين ، خلع طاقيته الخفيفة ، وبدأ يعيد جملته الأثيرة : انتبه .. أنت تسير فوق أرضى . انحنى على ، فنظرات إلى أعلى ، كان وجهه سقفًا أخفى كل شئ ، لم أر مساحة من السماء ، ولا من الفضاء الواسع ، وجهه الكهل فقط .

– سلم عليه .. وقل له لقد صارت أرض القصب التى سال عليها عرق شبابك ملكًا لى .. وقل له أيضا لا تحزن على ما فاتك من علم الكُتَّاب ، لولا هجرنا له ماصرنا من أصحاب الأطيان .

وتجاوزته وأن لا أود أن أفلت الضوء الذى أراه بعيداً على ناصية الشارع ، سرت على هداه حتى لا اتخبط فى الجدران القريبة لأنى كنت أترنح كالسكران ، وقدماى تسيران بى بحكم العادة ، لا بسبب الإدراك الواعى بانحدارات الشارع ، اقتربت من النور إلى حد الونس ، وأنا أسمع لهاثهم من خلفى ، كانوا ينطلقون بآخر طاقة الشيخوخة فى جسومهم ليلحقوا بى .

ورأيت باب الدار مفتوحًا على آخره ، والمقهى المقابل ادار المذياع على المرتل ، وقبل أن أمرق إلى الداخل وقعت عينى على التركى فى جلبابه الأبيض والنظيف يخرج من البيت القديم ممسكًا بيد المرأة التى ماتت وحيدة ، ويسبقاننى فى الدخول .

بسرت وراءهما حتى تلاشيا فى زحام النائحات .

* * *

فى ضحى هذا اليوم وصلت محطة مصر ، بعد أن حادثتها تليفونياً وطلبت منها الإنتظار على قطار الحادية عشر ، وكانت بانتظارى ، ركبنا الأتوبيس ، حينئذ رأيتهم يسيرون حول قاعدة رمسيس الحجرية ، كانوا صغاراً جداً تحت قدمى التمثال الشامخ ، يعبرون إلى جوار الفسقية، النافورة لم تكن تعمل ، انحبست فيها غبطة الماء ، كلهم فى اتجاه واحد ،يخبون فى جلابيبهم التى ترتفع إلى ما فوق الكعبين ، ولهم وجوه شاحبه ، رمادية ، تزيدها قتامة تلك اللحى المرسلة هيئات مختلفة من اللحى ، منها الكثيف المتشابك ، والخفيف الشعر ، المتناثر على الصدغين كعانة المراهق ، بعضهم كان يصحب نسوة منقبات ، يتبعن رجالهن فى خنوع ورضا تحت خيمة من قماش ، لها لون واحد ، منزوع البهجة . ألوان تتدرج من الأسود إلى البنى إلى الزيتى ، لا ورد هناك ، ولا زهر ، كائنات مطموسة ، عديمة الملامح ، ونمطية إلى حد الملل ، تندفع بهمة إلى الشارع الواسع ، خارجة من كل الإتجاهات ، إنهم يقبلون ، من بوابات المحطة ومن كوبرى شبرا ، وشارع الجلاء ، ومن جهة اليمين ، يأتون جماعات من شوارع الفجالة القديمة .

والأتوبيس الذى نركبه فى تلك الساعة من الظهيرة الخريفية يتحرك ببطء بين أرتال السيارات الأخرى ، لا نرى نهاية للإشارة .

وهى إلى جوارى تنفخ هواء القلق من شفاه رقيقة رسمها القلم ببراعة على شكل الوردة البلدى ، وأنا بالقرب منها أتنشق ريحها ولا أجرؤ على بدء الحوار معها لتهدئة روعها .

كلما نظرنا أمامنا أو خلفنا أو فى أى جهة عن اليمين أو الشمال لا تقع عيوننا إلا على سيارات تلفظ مواتيرها الوقود النئ ، ويسقط على أجسادها اللامعة شعاع واهن لشمس متوارية خلف كتل السحاب الأسود.

كانت أجسادهم تخترق الطرق المعقدة بين السيارات . منهم من يسير بمفرده غارقًا فى الحقب التى يهفو إليها قلبه ، مما يجعل سحنته ملقوبة على ملامح غضب كظيم ، فهو يبدو كالغريب بين الآلات الضاجة التى تقلق طمأنينة اليوم وسلام الحلم بالعودة إلى الأمس . حيث لا يسمع غير الأصوات الأولية ، أصوات من خلق الله ذاته ، ولا دخل لعقل الإنسان بها . ومنهم من يسير متأبطًا ذراع حليلته يتهامسان بكلام لا ينتمى لأحد غيرهما ، وعين الرجل تشع بسعادة الثقة بما قد أتاه فى ليلته ، ها هو الآن بعد أن تطهر بماء الغسل وماء الوضوء يصحب حلاله نحو قضاء الفرض . جسدها الملفوف فى الثوب الأسود ريان بروعة الأرتواء والشبع .

ومنهم من يغدو فى الطريق جماعة ذكورية كاملة تتدرج فى الأعمار ، الجد ثم الأب ثم الولد والحفيد ، وجميعهم يكبسون الطواقى البيضاء المخرمة ، وجميعهم يرتدون الثياب البيضاء عليها ، سويتر ، جلدى ، وتتدلى من تحت نيولها سراويل بيضاء لها غلق على بز الكعب ، يصحبون الحفيد الغارق فى بياض الطاقية والجلباب ، نحت مصغر للعائلة ، لا ينقصه سوى اللحية وإن بدا وجهه متجاوزًا لطفولته نجح فعل الأسلاف على تهيئة قسمات جادة وصارمة ، مفارقة للعمر ، وللحياة فى سذاجة الأحلام الطفلية .

الأتوبيس توقف تمامًا قبل الدخول إلى أول الشارع ، هنا يتكثف الزحام ، فالكل يتدفق من تفريعات الميدان ليصب فى شارع واحد .

الأجساد الفائحة بريح المسك والعنبر تموج كتلها المتلاحمة فوق الأرصفة وفى منتصف الشارع وأمام السيارات وخلفها وإلى جوانبها.

خرج من الباب الأمامى رجل طاعن فى السن لحيته تسقط حتى انحناءة الكرش ، له وجه غاضب ، لا ينطق – حين تحدث – بوقار يليق بهيبته ، يندفع الكلام من فمه المظلم ذى الشفايف الغليظة كدفعات رصاص ، لا يرحم ، صوت زاجر ، آمر ، يحمل فى طياته تهديدًا صريحًا ، وذكرًا بالنهاية المفجعة لكل حى .

قال : إنك ميت وإنهم ميتون .

وقال : إن العبد ليعالج كرب الموت ، وسكرات الموت ، وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول عليك السلام تفارقنى وأفارقك إلى يوم القيامة .

سار بين الكراسى يرمى الكتاب على أفخاذ الراكبين ، لا يفرق بين رجل وامرأة ، أو شيخ وطفل مذكراً الناس بعذاب القبر والثعبان الأقرع والسلسلة التى طولها سبعين ذراعًا وأهوال القيامة وما سيحدث لأهل النار وما سيحظى به أهل الجنة .

استحالت أمامى الأجساد الحية إلى هياكل عظمية يرعى فيها دود أسود كريه، وحبيبتى التى أدخلتنى حدائقها فامتعت عينى بمشاهدة أزاهيرها ، ونشق أنفى أريج عطرها الفواح رأيتها جمجمة مركبة على هيكل ، ضاعت ألوان الثوب الجميل ، وسقطت عنها نهودها ، وتلاشى خصرها ، وأخفت أساورها وعقود جيدها . عدت بنظرى حسيراً ، فرأيتنى على نفس الحال ، نظرت إلى الخلف ، إلى الأمام ، كل الركاب صاروا عظامًا فى عظام . حتى البائع والسائق ، والدود ظل يسعى على الأرض ، وفوق الكراسى ، وعلى حواف النوافذ ، وعلى الأجساد البشرية السائرة فى الشارع .

رأيتهعم جميعًا هياكل عظمية تهرع فى خرائب .

والبيوت التى عن يمينى تمددت عليها خيوط العنكبوت .

ورأيت الفجالة قد انخسفت الأرض بها، فاحتفت منازلها ، لم يبق غير سبيل أولاد عنان ، وصار مسجد الفتح أنقاضًا على شاطئ النهر الذى كان يسير يومًا فى نفس الموضع و ورأيت الباعة فوق الكبرى والخشب ينادون على الليمون الذى تفيض به قففهم ، وعلى آخر المدى كانت أرض الطبالة ، بزرعها العشوائى ، تسمق خلاله نخلة هنا أو شجرة هناك حتى بأن لعينى ماء الخليج المصرى ، وعلى شاطئه الشرقى رأيت القاهرة ، من البستان الكافورى حتى مآذن الأزهر وباب الفتوح المطل على صحراء الدراسة تبدو أمام أسواره – التى ترفع مئذنة الحاكم– شواهد قبور حديثة العمارة .

صخب الأتوبيس بصوت الفرامل المفاجئة فتناثرت عظامنا ، واختلطت ، اعقب ذلك صمت مهيب ، فرأينا بائع الكتب يجمع أشلاءه ، ويلملم صفحات كتابه وينزل إلى الأرض .

فالتحمت بالشاطئ جزيرة بدران التى كانت عائمة وسط ماء النيل ، وعاد الفرع الشرقى إلى مكانه ، وأزيلت الترعة الحلوة تدريجيًا ليمتد على جسدها شارع نازلى ، على جوانبه منازل تنتمى عمارتها للقرن التاسع عشر ، ويتفرع منه شارع كلوت بك بالبواكي العريقة وخط الترام الذاهب إلى العتبة ، وتشكلت مبانى محطة مصر ، وضجت قطاراتها الراحلة إلى الدلتا والصعيد ، وبعد فترة وجيزة ، صار الشارع يحمل اسم رمسيس ، فعاد إلى شكله الحالى ، يقف على واجهته الجنوبية مسجد الفتح ، وعلى بدايته الشمالية محطة المترو على الطراز الحديث ، وتبدأ منه وتنتهى فيه كبارى علوية تضبح بالسيارات المسرعة .

استعدنا ملامحنا ، واكتست الأجساد بلحمها الآدمى ، وبأثوابها الملونة ، وعاد العطر يحوم بأريجه ، ورنوت إليها بعينى ، فتلاقت النظرتان على الدهش وكأنما كل واحد يريد أن يقول للآخر : هل بعثت؟

قلت لها : إننى سعيد باستعادتك .

فدنت منى ، ولامست كفها كفى ، فاشتعل النبض ، حتى سمعنا ضربات قلوبنا ، وتأكدت لى الحياة ، هذه أنفاسى فى صدرى تتردد شهيقًا وزفيراً ، وأمسح قطرة عرق عن جبينى ، واشم رائحة البشر من حولى ، رائحة الإنسان الحى ، وأصواته ، ضجيجة ، قيامه ، وقعوده، خوفه ، ورجاءه .

مد السائق يده إلى مذياع السيارة ، فملأ صوت المغنى المكان ، كنا قد وصلنا بالقرب من كنيسة الأرمن ، تطلعت إلى بنائها الفخيم ، تطل من أسوارها العالية أشجار دسمة الخضرة ، تصدح بين أوراقها عصافير مختبئة ، رفعت عينى إلى أعلى لامتع البصر بهندسة برجها الجميل ، كان الجرس الكبير بين فتحات البرج صامتًا تمامًا يتدلى كخصية الفرس المكتنزة .

بالقرب من المسجد الذى تجمعوا حوله اقتحمت أذاننا صرخات الميكروفون فوق المظلة الخضراء ، وتأكد لى أنه نفس الصوت لبائع الكتب ، كان يقول : أيها الناس

لو تعلمون ما أنتم راءون بعد الموت ما أكلتم طعاماً على شهوة ولا شربتهم شراباً على شهوة ، ولا دخلتم بيتًا تستظلون فيه ، ولحرصتم على الصعيد تضربون صدروكم وتبكون على أنفسكم .

خارج الأبواب وقف البعض منهم ينظم دخول الجماعات المحتشدة ، ويصرخ فى المارة دون مبرر ، والبعض يرش من عطرهم روائح انبعثت أشباحًا ووجوهًا لعفاريت من الجنى أحاطت بنا من كل جانب .

عند فتحة الشارع الجانبى حيث الباب الذى تصعد منه النسوة المنقبات حانت للسائق الفرصة فوجد أمامه فراغًا يمكنه من المروق فداس بأقصى طاقته ، قفز على إثرها الأتوبيس قفزة هائلة حتى خيل إلى أنه طار بجناحين فوق السيارات الواقفة ، وانطلق فى الشارع متجاوزًا كل الموانع ، ولم يهتم بصفارة العسكرى ولا بلعنات الملتحين، وبرغم الرعب الذى قبض على قلوبنا هتفنا مؤيدين لهذه القفزة الشجاعة.

وفتاتى صرخت من هول الإندفاعة ، وانتفضت فجأة . لاجدها بكامل جسدها الحى لابدة فى كيانى الزاعق بدم الرغبة .

القسم الثانى

- ١ -

كانت شمس الصباح تبرق وراء أشجار العبل من الجهة الشرقية ، يخطفنا وميضها المتتابع من سرعة القطار ، وحين تقل السرعة ، تبدو بكامل دائرتها المنيرة هادئة بين السحب البيضاء الخريفية .

نقترب الآن من الجزيرة البيضاء .

* * *

وكنا قد غادرنا القاهرة وهى مهيأة للدخول إلى مخدعها ، انخلعت أنا وفؤاد من شوارعها بينما أهلها يتعجلون الخطو للحاق بآخر الحافلات ، يرفعون بأيديهم أكياساً وحقائب ، ويضعون تحت إبطه جريدة الغد ، وكان الصبية من باعة الصحف ينتشرون على الأرصفة ومفارق الطرق يهتفون بالعناوين وجريمة الأمس .

الأيام الأخيرة من سبتمبر ، والطقس الخريفى المعتدل يشجع على السفر فى تلك الساعة المتأخرة ، فلا هو بالقارص البرودة ، ولا هو بالحار الخانق للأنفاس ، وانتعشت صدورنا بالنسمة اللطيفة اللاهية حول رمسيس الواقف فى ظلمة قاتمة محبوساً بين الكبارى العلوية ، ومعابر المشاة ، وأضواء الأعمدة كانت قليلة ، وخافتة تشكل مع الأنوار المنبعثة من عربات الطعام بحيرات صغيرة من النور بين ظلمة شاملة .

القاهرة حزينة ، تعيش زمن الخوف والتوجس منذ أن كشف السادات عن جنونه الكامن ، وكشر عن أنيابه ، بعد أن تشدق كثيراً . بالديمقراطية ، ورأى فيها مفتاحه السحرى للدنيا الجديدة التى وعد بها. عقب عودته من الولايات المتحدة ، وكرد فعل على أحداث الزاوية الحمراء التى فجرتها فتنة طائفية مشترك فى مدبريها ، أصدر أوامره بالقبض على ألف وخمسمائة من خصومه السياسين : زعماء معارضة ، وكتاب ، وشيوخ ، وأساتذة جامعات ، وطلبة . واطلقت صحافته على هذا الفعل المتهور " ثورة الخامس من سبتمبر " .

اقتلعت من معمعة الحوار الصاخب مع الزملاء الذين بقوا فى الخارج ، ومن الإنشغال بمتابعة أخبار المعتقلين ، وتخمين التوقعات لمستقبل غامض لكل من الحكم والمعارضة .

بعدما جاءنى فؤاد من بلدتنا – فى وقت متأخر من هذه الليلة – دخل علىَّ شقتى هادئًا كأنما قدم لزيارة عابرة، وبعد شربنا الشاى مع أصدقاء المدينة انسحبوا إلى بيوتهم ، يطوون فى صدورهم رهبة *الأيام القادمة* ، قال فؤاد بنبرة جاهد فى أن تكون عادية : مررت على بيتكم عصر اليوم ووجدت الوالدة بعافية ، أمرتنى بالجلوس إلى جوارها على الفراش وكانت تتملى وجهى كأنها تراك .

تيقظت حواسى كلها ، وتحايلت على نفسى حتى لا أبدوا أنى كشفت شيئًا يخفيه بحرص خلف كلماته ، وسقطت حواراتى مع الزملاء، وتوارى الإهتمام بأمور السياسة ، وانتبهت لكونى ولداً ينتمى إلى بلدة بعيدة ، لى فيها أم عجوز ، تعانى المرض ، بل سكرات الموت ، ربما كان فؤاد من الدهاء أنه أخفى بقناع وجهه الإعلان عن احتضارها ، وتواطأت معه فى هذا الشأن ، وكأنما حدث اتفاق سرى بينى وبينه ، عليك أن تجيد التخفى وراء سحنة الثبات ونقل الخبر المفجع بأداء محايد، وعلىَّ أن اتماسك ، وألا أبدى لك أنى عليم بما تسره نفسك .

ووفقت فى أن أحيل اقتراحى بالذهاب إلى البلد فى هذه الساعة بالذات إلى مجرد رحلة ليلية ممتعة ، ولاقيت منه ترحيبًا شديداً ، كان هذا هو ما يريد بالضبط ، لو كان الأمر عاديًا لقال كيف تعيدنى فى الحال إلى البلد وأنا فى زيارة لك ، ألا ترى إجهاد السفر باديًا على وجهى ؟

ارتديت ملابسى على الفور ، ونزلنا معًا .

دخلنا المحطة ، وفاجأنا عدد المسافرين الذين يتحركون تحت المظلة الحديدية الشاهقة فى الساعات الأخيرة من اليوم ، كانوا يرفعون الحقائب ويجرجرون أطفالاً صغارًا غلبهم النوم ، وتتقدمهم أو تسير خلفهم نسوة يسترن رؤوسهن بإشاربات ملونة .

للمحطة غبطة لا تنقطع ، فهى مكان اللقيا ، وأول خطوة للرحيل ، بين جدرانها المرتفعة ، وتحت سقف زجاجها التقت قلوب ، وأفترقت قلوب ، فهى حرم اللقاء والوداع .

حين أدخل من بابها أحس وكأنني على عتبة داري ، ولرحيل القطارات ليلاً متعة شجية ، فأنت تؤدى فعلاً فيه إيثارة بالغة ، الناس نيام وأنت وحدك المسافر ، وبعدوتك المفاجئة تسعد قلوبًا لهفى للقاء .

سألنا عن القطارات المسافرة ، فقالوا لنا : لا يوجد قطار يأخذك إلى بلدك مباشرة ، يمكن أن تركب الصحافة حتى بنها ، ثم هناك تبدل مع آخر.

لا بأس :

هل أنستني متعة الرحلة الليلية ما أنا مقبل عليه ؟

أنا أريد أن اسلو ، واحطم بالحركة سكون الحزن الباهظ ، حاولت تأجيله ، ودفعه إلى ركن من القلب ، وكان يغافلني ، فتتقد ناره ، خافته واهنة أول الأمر ، ومع سرحات الفكر تتوهج الجذوة حتى يشيط الدم فى عروقي وفأنفخ طارداً اللهيب ، أرفع ناظرى إلى عين فؤاد الثابتة على وجهى ، ليدير وجهه إلى النافذة فلا يرى غير الظلام فوق الحقول وأنواراً قليلة لقرى بعيدة نائمة ، انقضضت عليه بسؤالى : ألم يزرها طبيب ؟

– الحكاية ليست بحاجة إلى طبيب .

نزلنا بنها فوجدنا محطتها غافية تحت نور "النيون " الكثيف ، يسقط وهاجًا على أجساد القادمين من القاهرة ، ثم يخفت عند هبوطهم السلم متشبثين بالدرابزين خشية السقوط ، وبرغم ذلك فهم يتعجلون العودة إلى الفراش الدافئ ، ذلك أننا بدأنا نشعر بالبرودة ، وانقلبت النسائم الخريفية إلى تيار هوائى لاسع ، هربنا منه إلى غرفة الإستراحة ، بعد أن سألنا المعاون عن قطارنا ، فقال إنه يأتى الخامسة فجراً ، نظرنا إلى ساعاتنا فوجدنا أننا بحاجة إلى الإنتظار لمدة ساعتين.

لا بأس :

الليل هنا موحش ، لا صوت له ، ليتنا بقينا فى محطة مصر، لنتغلب على الملل بمتابعة المسافرين ، فوق كراسى "الكافيتريا " التى لا تغلق أبوابها .

رحت أقلب صفحات الجريدة الصباحية، فتمطى الحزن من جديد ، وراح يتمدد في الصدر حتى كاد أن يمزقني ، كيف الهروب منه ؟

* * *

بعد رحيل الأب سمعنا منها كلمة يا حبيبي .

لم تقلها أبداً في حياته ، وكنا حين تجمعنا لحظات الود العائلي ، ويتباسط الوالدان معنا في الكلام عن حياتهما الغابرة ، ويقص علينا الأب كيف تعرف عليها ، وكيف طلبها من أبيها ، بعد عدد من اللقاءات المختلسة ، ويسألها مبتسماً : أليس ما أحكيه صحيحاً يا فهيمة ؟ تنكر ذلك وتقول بدلال : إنه يخلط الأمور .

هذا ما يخص زوجته الأولى .

فنسألها بطريقة مباشرة لم تتقبلها على الإطلاق : هل أحببته ؟ كما أجببته هي فتشوح بيدها في الفراغ ، ثم تضرب بها على صدرها : حب ؟ !! بلا قلة أدب .

وقد بدا لنا هذا الحب جلياً بعد رحيله ، كانت تتخبط في جنبات الدار كالضائعة ، وتدخل إلى غرفته وحدها ، لتمكث الساعات الطوال ، وكان صوتها يأتينا من الداخل ، فنقول : إنها تحادثه .

وتقضي أيامها كأنه معها ، كل ما في الأمر أنه استحال إلى طيف لا يراه غيرها ، توجه إليه حديثاً لا ينقطع ، وحين يأتي أحدنا فعلاً لا يرضيها تتكلم إلى الكائن الطيفي الجالس إلى جوارها : شايف يا حاج.. يرضيك ؟

أو تقول لا تفعل كذا ، لأن أباك لا يوافق على هذا ، فنستجيب إرضاء لها ، وكنا لا نجرؤ على إقتحام عوالمها ، فهكذا هي حتى مع أبيها وأمها اللذين رحلا منذ زمن بعيد جداً لم ينقطع عنها ، ولم يرتفعا بأبدانهما المجسدة عن حياتها ، كل ليلة تقرأ لها الفاتحة قبل النوم بعد ذلك اضافت فاتحة جديدة للوالد الذي تغلب على أحلامها ، فصار هو الشخص الوحيد للأحلام الكثيرة المتنوعة ، وتوارى - إلى بعيد - الأسلاف

الأوائل ، شحبت أطيافهم قليلاً ، واختلطوا بأحداث الراحل العزيز ، فهو القادم الجديد إلى عوالم الموتى ، وصاروا هم جزءًا من حياته الجديدة ، قال لهم، وقالوا له .

وكنا ندرك أن حياتنا لا تعنيها إلا فيما ندر ، وربما ترانا امتداداً لأطيافها ، حرصت على الإستمرار فى طقوسه اليومية ، بساعة الصحو، وموعد الوجبات ، وأوان النوم والصلاة ولا تنسى أن تضئ له غرفته كل مساء وتترك المذياع ليتلو القرآن إلى ما شاء الله .

أما ملابسه فلم تفرط فيها ، ولم توافق على أن يقوم أخى بإرتدائها ، كما لم توافق على إعطائها لأحد من المحتاجين ، تختفى منا فجأة ، فنبحث عنها ، ثم نفتح عليها باب غرفته فنجدها أمام الدولاب ، تطوى ملابسه للمرة الألف ، صف لملابسه الداخلية البيضاء المزهرة ، وصف لملابسه الصوفية الثمينة ، وآخر لجلاليب الصيف الخفيفة .

وحين دخل الموسم وجاءنا محصول الأرض ، فرغ الرجل القمح فى الحوش الخلفى ، ووقفت هى متنمرة ، تنظر إلينا بعداء لا نعهده فيها، ووجهت إلينا الخطاب : اظن كل واحد سيقول نصيبى !

وقال لها أخى : هذا شرع الله يا خالة .

– أتتمسح الآن بشرع الله يا كافر .

ثم وجهت خطابها للرجال : افرغوا الحب كله فى الصوامع . ورفعت سبابتها أمام وجهها بوضع حاسم .

– من يريد شيئًا فليأت إلىَّ ويطلبه وأنا لن أتأخر .

وخضعنا لمشيئتها ، هل كان من الممكن أن نفعل غير ذلك ؟

تذمر أخى ، وخرج من الدار غاضبًا ، فهو يعيش حياة مستقلة ، وله زوجة وأولاد ، وله كل الحق فى المطالبة بنصيبه ، وكان يود لو أنه يسيطر على الأمر جميعه ، ولكنها لم تسمح له .

بعد ذلك لم يستطع الصمود طويلاً ، فسرعان ما تصادما ، فقد عاد- أكثر من مرة - إلى المطالبة بحقه ، وحاول إقناعها بحاجته ، والحق أنها لم تبخل عليه ، ولكنه أراد أن يستقل بما قسم الله له ، وكل مرة أزور فيها البلد ، أجدني لا عمل لي غير سماع الشكايا من الجانبين هي تقول : الجاحد .. لا يسأل عنى ، يلبد هناك فى مؤخرة زوجه ، يمر الموسم لايدخل علىَّ بكيس فاكهة ولا حتى كيلو لحمة ، إنه لايفكر إلا فى الاستيلاء على كل شىء .

وهو يقول : أمك تميل إلى السيطرة ، أنها تحرمنى حقى فيما ترك أبى .. وأنا الكبير ، لقد صرت مسخرة بين الناس ، ولا أعرف كيف أرضيها ، إذا دخلت عليها بما يقدرنى عليه ربى تقول ساخطة « ياما جاب الغراب .. » وإذا دخلت عليها بيد فارغة تزمجر فى وجهى « داخل ايد ورا وايد قدام » وحين اطالبها بشىء تردنى بعنف .

وأصلح بينهما إلى حين ، ويطوى كل واحد ما فى قلبه ، ثم عرضت عليها أن تأتى معى ، وكان فى ظنى أن هذه الزيارة ستخرجها مما هى فيه ، وتدفعها إلى اليقين برحيل الأب ، رفضت فى البداية بشدة ، كيف اترك دارى نهباً للخاطفين ، واشارت بيدها إلى ما يفيد بأنها تعنى أخى ، واقول لها غلقى كل أبوابك ، وأنا أوكد لك إنها ستكون فى أمان .

ووافقت أخيراً .

قضت المدة تترصد كل حركة وكل سكنة من سلوكى تجاهها ، لأنها صارت حساسة جدًا تجاه كل فعل يصدر عنا ، وبالفعل فإن ارضائها كان مستحيلاً . إذا اضطرنى موعد مع الزملاء للسهر إلى ساعة متأخرة من الليل اعود إليها فأجدها ساخطة جدًا ، وتقول متبرمة : من ترك داره اتقل مقداره .. جئت بى إلى هنا لتتركنى بين الأربعة جدران ؟

وإذا عرضت عليها بأن أصحبها فى زيارة لحديقة الحيوان مثلا تقول : كان زمان .

أو أعرض عليها مشاهدة الفيلم فى السينما تضحك منى قائلة : سيما . بلا هم .

فاعرض عليها أخيراً زيارة السيدة زينب أو الحسين فتقول : بعدين .. قرأت لهما الفاتحة من هنا .

ثم زارنى يومًا صديق ، كنت لا أستطيع أن اوافيها بالمعلومات الكافية عنه ، حين لاحقتنى بالسؤال عن شخصة ، كنت اجيب عن كل سؤال بإجابه ملفقة حتى لا تكشف سره ، لاينبغى أن اقول لها إنه لم يكمل تعليمه ، لأنه مشغول بالعمل السياسى السرى ، وإنه من المفروض ألا نكشف عن اسمه الحقيقى ، فهو يعيش فى مكان خفى ، ويتردد علىّ من حين لآخر ، يترك عندى بعض الأوراق أو ليحصل على بعضها .

ولما سألت عن عمله ، قلت لها : مهندس .

– مهندس مبان .

– مهندس كهرباء .

– والنبى شكله لايعطى أكثر من عامل فى البلدية .

وحدث أن التيار الكهربائى انقطع عن الشقة بينما أنا وهو جالسين فى حجرة الجلوس ، فخرجت إليها لاطالبها بأن تشعل لنا لمبة الجاز ، فقالت : ولم لمبة الجاز .. إن النور لم ينقطع إلا فى شقتنا قل لصاحبك مهندس الكهرباء يصلحه .

وطلبت منه ذلك ، واتفقت معه على أن تكون هذه مجرد ترضية لها ، والمسكين حاول الإعتذار ، فقد اسرَّ إلى : أنا لا افهم فى الكهرباء . قلت له : إن الأمر لايحتاج أكثر من تركيب بسلك شعرة فى « الكوفرية » . وابسند يده على كتفى ، ووقف على الكرسى يبحث عن « الفيشة » وهى وقفت خلفنا ترفع لمبة الجاز ، ففاجأها رأس صديقى الحليق ، كان قد قص شعره بلاطة ، كتمت ضحكتها فى صدرها ، وأنا همست لها : عيب كدا .

وصديقنا كان يتابع الهمس بينما أصابعه ترتعش وهى ممسكة « بالفيشة » التى احتار ماذا يفعل بها ؟ ونز العرق من وجهه ، ولمع رأسه فى النور القليل ، فلم تتمالك أمى من إطلاق ضحكتها ، ونظر إليها صديقى ظناً منه أنها كشفت قلة حيلته : فقال لها : أصلى مهندس الكترونى .

فضجت ضحكتها فى الردهة ، ولم تقدر على الإمساك باللمبة فتركتها على المنضدة ، وأغلقت على نفسها الغرفة ، وتمكنا - بعد جهد - من إصلاح النور ، وودعنى الصديق ، لأعود إليها مقتحماً الغرفة بلا رحمة ، وقلت لها صارخاً : هل جئت بك إلى هنا لتتهكمى على أصدقائى . فصدمت ، ولم تحر جواباً ، وتركتها وحدها فى ظلام الغرفة .

حين جاء موعد العشاء اعددت المائدة وحدى ، وناديت عليها فلم ترد ، طرقت عليها الباب ، فلم اسمع لها جواباً ، حاولت فتح الباب لم استطع لأنها غلقت الترباس الداخلى ، وتركتها لأننى لا اقدر أن أفعل أكثر من هذا ، فقد عودتنى على أن تغضب لبعض الوقت ، ثم تعود هى إلى مصالحتى ، حتى لو كنت السبب .

فى الصباح فتحت باب غرفتى بعد أن ايقظنى رنين المنبه ، وحين قطعت الردهة لدخول الحمام وجدتها أمام باب الشقة المفتوح جالسة على درج البيت محلولة الشعر ، وكان وجهها كله منتفخاً ، وبياض الحدقة انقلب جميعه إلى اللون الأحمر ، وهى تهرش بأصابع اليدين فى الشعر الرمادى الداكن ، قلت لها خجلاً : صباح الخير .. فنظرت إلى الجهة الأخرى ، ولم اسمع رد التحية ، فاضطربت مشاعرى ، واشفقت عليها ، وددت لو أنى اذهب إليها وأركع بين يديها طلباً للغفران ، ولكن كيف الطريق إلى ذلك ؟ لم اعتد هذا أبداً .

أكون فياضاً بأحاسيس المحبة لها ، ولا أقدر على إظهارها ، وهى دوماً الضعيفة تجاهى ، ترمى بنفسها فى أحضانى ، وتموج بداخلى مشاعر متناقضة من الحنين والرفض ، من الجمود والانسيال العاطفى الخرع .

الغريب إننى - فى هذه المرة - لمحت فى تعابير وجهها شيئاً مغايراً لن تلين هذه المرة ، ولن تتقدم هى الخطوة الأولى التى عودتنى عليها إنها أهملتنى تماماً .

انقطعت فى يوم وليلة كل عواطفها تجاهى ، استشعرت ذلك ، وخفت منه للغاية ، ولم أجد وسيلة للخروج من موقفى الصعب ، غير التلهى بارتداء ملابسى ، ولم أفكر فى إعداد لقمة الإفطار ، كما أننى لم أجدها وقد اعدت ذلك من تلقاء نفسها ، كما عودتنى منذ قدومها .

وخرجت من الغرفة مرتدياً ملابس العمل فوجدتها أمامى تمسكنى بقبضة خالية من الحنان ، وفى اللحظة التى اردت الاعتذار فاجأتنى .

- عد بى إلى دارى . لولا أنه جاءنى بالأمس وقال أتغضبى منه إنه حبيبك الذى تركتى بلدك ودارك من أجله ، طلب منى أن أسامحك ، ويحزنى أننى لأول مرة أخالف له أمرا . لن أسامحك .

وعدت بها إلى دارها لتعيش وحيدة ، لأنها منعت أخى من الدخول إليها ، ولكنها لم تمانع فى أن أزورها ، كما لم تمانع فى تبادل الحديث معى فى حياء ، أفزعنى ، وأدهشنى قدرتها على اصطناعه ، فى كل زيارة إليها تسقط الحاجز قليلا بيننا ، تعمل كل مالا تواخذ عليه كأم ، ولكن هذا الشئ الغامض الذى كان يربطنا والذى لايمكن التعبير عنه بكلام ، هذه الصلة من المحبة والأمومة ، سقطت تماماً ، وإرتضت العيش فى غلالتها الشفافة جداً ، والقوية جدا ، التى يستحيل مع كل جهد مبذول إقتحامها .

طويت سرى فى نفسى ، فهو كالإثم الحرام الذى لايبوح به المرء لأحد قط . أخشى ما أخشاه أن تموت قبل أن تغفر لى .

ياويلى لو حدث ما تتوقعه نفسى .

لقد عافرت مع المرض ، وأنا متأكد أنهم سألوها فى أن يرسلوا إلىَّ لأكون إلى جوارها ، ويقينى أنها رفضت تماماً ، وقالت : تحرموا علىّ لو أخبرتموه بمرضى . لو كان يشعر بأمه حقاً لجاء من تلقاء نفسه ، ولكنه جاحد ، وقلبه ميت .

* * *

فزعت على صوت القطار القادم من الجنوب ، فايقظت فؤاد الذى تمدد على الكرسى الخشب الطويل ، وطويت الجريدة التى لم أطالع فيها سطراً .

تخيرنا إحدى العربات لندخل من بابها ، كان عدد الركاب القليل يتوزع على الكراسى ، ينكمشون فى ملابس شتوية ثقيلة ومنهم من راح فى نوم عميق ، لا يوقظه وقوف القطار ، ومنهم من جلس متيقظًا ينصت إلى حوار الآخر الذى ينطلق الكلام من

فمه مع دفعات البخار ، والتحقنا بهم ، ليتحرك بنا القطار الذى سيصل البلد بعد ساعتين ، ليكون هو نفسه قطاع السابعة .

* * *

صفارته لم تزل تدوى فى أذنى منذ ذلك الشتاء البعيد ... كان يقف فى المحطة، والمطر يهطل ، وتتساقط حبات منه على عتبة الباب ، وكنت أنا بالداخل بعد أن إنتهت من تناول إفطارى ، اقف بين يدى أمى تضبط على بدنى الصغير المعطف الأسود الخشن ، إبتاعته لى من الرجل الذى يعلق المعاطف على سور السوق الحديد ، وطوت لى الطاقية على هيئة كيس ، وأدخلتها فى رأسى حتى غطت أذنى ، وطبقت أصابعى الباردة الأطراف على "جزء عم " وقالت لى : لا تجعل أحداً من الأولاد يخطفه منك .. وأحذر أن يسقط فى الطين .

واستدارت إلى أخى فؤاد لتقول له : توكلوا على الله .

وظلت لمدة تلوح لنا بيدها وهى واقفة على الباب بينما أنا وأخى نخوض فى الوحل ، حتى خرجنا إلى الطريق المسفلت .

رأيت زحام التلاميذ والمسافرين وهم يهرعون إلى المحطة ليلحقوا بقطار السابعة ، وقلت فى نفسى : إنتهت أيام اللعب ، ولم يعدلى نصيب فى التسكع على المحطة للشعبطة فى هذا القطار أو فى غيره من القطارات .

مررنا على مقاه كثيرة ، وشممت رائحة الريحان الذى تمتد أغصانه خارج أسوار هندسة الرى ، وسمعت صفير قطار الدلتا يأتينا واهنا من وراء السور العالى للسكة الحديد الذى يطل من أعلاه الدور الثانى لبيت ناظر المحطة ، المحاط بأشجار الكافور السامقة ،يبدأ قيامه من بلدتنا عند باب حديقة الخواجة ديمترى ، ثم ترتفع قضبانه فوق تلال من الرمل الذى يبرز وسط الأرض السوداء ، فتسير به هذه التلال حتى النهر ، وهناك يعبر كوبرى صغير له فلكنات خشبية سميكة ترى من خلالها الماء.

قال لى أخى فؤاد : غداؤك فى الحقيبة ، ولا طعام إلا فى الفسحة. كان الأولاد يتوزعون أسفل سور هندسة الرى ، وعلى عتبات المسجد ، ويتكدسون فى بقع الشمس الشحيحة على باب جمعية تحفيظ القرآن ، تركنى أخى ، وقبعت وحدى فى زاوية ، أتابع رعشة بدنى المحموم ، وأرقب السيارات تبدو فجأة أمامى فى المساحة الخالية من الشبورة .

حين سمعت الجرس دخلت فى زحام الأولاد ، وسرت فى جمعهم لنتظم فى صفوف ، ورأيت رجلا كبيراً له كرش يدخل وسط الزحام يهز بين يديه جلدة سميكة ، وعرفت أنه الشيخ الكبير ، وخرج شيوخ آخرون يرتدون الجلابيب الفضفاضة وعلى رؤوسهم طرابيش حمراء ، راحوا يشخطون فى الأولاد ، ويجمعونهم فى أرض الطابور .

فى منتصف النهار خرجت من مكان الدرس برأس دائخ وعين زائغة ، تتابع علينا الشيوخ ، واحد يطلب منا القراءة بصوت جماعى موحد "قل هو الله أحد .. الله الصمد " و"قل أعوذ برب الناس .. ملك الناس.. إله الناس " .

ونلت ضربة على ظهرى لأنى لا أهتز مثل باقى الأولاد ، ورأيت أمى ترفع يده عنى وتصرخ فى وجهه : شلت يدك .

وحين دخل آخر ، وطلب أن نعد من واحد لعشرة فى إيقاع منتظم ، وبصوت عال ، رأيت وجهها الباسم فى النافذة يحضنى على الإستجابة للشيخ .

سرت فى الطرقة الممتدة بين الفصول أبحث عن خلوة ، والأولاد ظلوا يخبطون كتفى ، ويدفعوننى من وراء ومن أمام، وهم زائطون بساعة اللهو ، وأن ظللت أبحث عن خلوتى حتى وجدت مكانًا فارغًا مدقوقًا على أحد جدرانه جرس كبير ، تتدلى من يد له سلسلة طويلة ، جعلت أثب إليها ، وأثب ، ولا تلمسها يدى أبداً . ونالنى الإجهاد فقعدت على البلاط ، ورأيت النمل يسعى فى صفوف أسفل الجدار فتتبعته ولم أجد نهاية لصفوفه ، فأعدت الكرة ، أبحث عن بدايته ولم أجد له بداية ، فاخترت مكانًا فى المنتصف ، ومددت أصبعى بحذر ، وبدأت أفرك هذه الحشرات الصغيرة حتى أختلت صفوفها ، وإضطربت ، وراحت تدور حول نفسها، فى حيرة ، كمحاولة أخيرة لاستعادة الصف .

ثم انتبهت إلى اليد التى رفعتنى من الكتف ، وقادتنى أمامها ، لتعيدنى مرة أخرى إلى غرفة الدرس .

* * *

الآن أدخل الجزيرة البيضاء .

سبقنى فؤاد إلى النزول ، والتحمنا بزحام الهابطين ، والطالعين نفس الزحام ، وإن كان بوجوه مغايرة ، تلاميذ يسافرون غير تلاميذ الأمس، ومعلمون يهبطون غير معلمى الأمس .

الحالة ذاتها بأناس آخرين ..

قلت له : عد أنت إلى بيتك .. إنك لم تنم منذ البارحة .

– سآتى معك .

– لا داعى .

وإستجاب لى ، قطع الشريطين إلى الجهة الأخرى من المحطة ، ونزلت الدرجات القليلة لاستقبل الميدان الذى فتحت أبواب محلاته لتستقبل شمس الصباح المتوارية خلف السحب البيضاء الخفيفة .

بوابة المحطة المغلقة حجزت عربات الكارو المحملة بالضائع والسيارات التى تنقل المسافرين وأولاد وبنات المدارس فى أزيائهم المختلفة ، مرايل من تيل "نادية" بسمنية اللون ، ومرايل كحلى لبنات الإعدادى ، وأخرى رمادية لبنات الثانوى ، وحمير وجاموس وأبقار متلهفة جميعًا للغدو إلى الحقول لتحظى بوجبة الإفطار ، ودفء الشمس .

دخلت الشارع الجانبى، فكان عدد التلاميذ أقل ، وكانوا يهمهمون بكلام مبهم ، والبيوت كانت مغلقة الأبواب ، أما النوافذ فقد فتحت لتجدد هواء النوم ، كنت أرى بين باب وآخر امرأة تميل على الأرض لتكنس أمام بيتها، عندما أقترب منها تنقطع عن عملها لتقف والمكنسة بيدها ، تتأملنى والحيرة تحوم على وجهها ، ولا تدرى ما تقول .

وصلت نهاية الشارع ، وفى اللحظة التى سأنحرف فيها إلى بيتنا ، ظهر فؤاد فجأة . وأمسك بيدى ، لم يقل شيئًا ، ولم أجبه بشئ ، فهناك على جدارنا ركنت المغسلة ، وإلى جوارها النعش الخشبى ذى السيقان الطويلة ، وأمام الباب بالضبط ، وفوق الأرض النظيفة المرشوش على ترابها قطرات خفيفة من الماء ، صفت الكراسى التى جلس عليها رجال ينصتون لصوت المرتل المنطلق من فتحة الباب الموارب ، ومن ثنايا النوافذ المغلقة .

* * *

- ٢ -

أدخلونى إليك ، فقد رأوا أنه من الواجب أن ألقى نظرة لأنى الوحيد الذى لم يحضر لحظاتك الأخيرة ، وشملتنى الحيرة فأنا لا أدرى ما أفعل غريب أن تتجمد الدموع فى عينى ، لم أبك بعد ، ويبدو أنى لن أبكى أبداً ، هل حقًا فاجأنى رحيلك ؟

لا أجيد ، بل لا أريد ابداء المبالغة فى مشاعرى ، ربما لعننى الآخرون ، لأنهم إعتادوا التهويل فى إظهار فجيعتهم ، وأنا أزعم ، بل متيقن أن أحداً من الساعين حولى لا يحمل حزنًا بحجم حزنى الخاص .

قلة الحيلة ، والشلل التام ، هما ما استسلم لهما فى الأمر الجلل.

أنت جربت هذا معى ، وعودتنى على الإندفاع العاطــفى نحوى، ولا أملك غير التلقى فى جمود .

هل عرفت يومًا أنى أذوب فيك حبًا ؟ أشك .

مدت واحدة من الجالسات حولك يدك لترفع الغطاء عن وجهك ، وقالت : حاذر الدموع حتى لا تسقط على وجهها .

دموع الأحياء قطرات من اللهيب على وجوه الموتى .. هكذا قالوا .. ولكن لا دموع ، مبرر معقول ، سيقولون حافظ على دمعه حتى لا يصيب وجه الأم ، ورأيت ملامح باهتة لبسمة ساخرة ، كأنك أنت بالذات أدرى الحاضرين بدخيله نفسى ، كان رأسك دون غطاء ، فانساب على الجهتين شعرك الرمادى ، لتتضح الفرقة الوسطانية هذا الخط الذى كان يبدأ معه مسيرة المشط ، كنت إذا خرجت من الحمام مبلولة الشعر تجلسين القرفصاء فى ركن من الصالة ، وتسحبين المشط الخشب من منتصف الرأس ، فينثر الماء .

لم تزل فى أنفى رائحة إختمار فروة الرأس بماء الحموم ، ورائحة الصابون الأبيض مخلوطة بروائح الثوب المغسول ، هذه هى رائحة طهارتك .

ولكن حين ملت لا قبل جبهتك لم تطرق أنفى غير رائحة الأدوية لم أرهب الموت الذى تغلب عليك فى الساعات الأخيرة من نهار الأمس . لم أجزع له كما كان يرعبنى حين كنت تصطنعينه فى صغرى ، فى بعض ساعات لهوك معى ، تفاجئننى بهذه اللعبة .. أنظر إننى سأموت الآن .. وتسقطين رأسك على الوسادة ، وتغمضين العينين ، وتتجمد أطرافك ..

وبرغم رعبى الشديد فإننى لا أبدى شيئًا من الخوف ، اكتفى بأن أرفع جفنيك وأردد بهدوء .. أمى .. قومى ، ثم أترك الغرفة وأسمعك تقولين متحسرة : قلبك ميت .

ظلمتنى بهذا الحكم أكثر من مرة ، لأنك لم تدخلى معى غطائى الليلى ، ولم تشاهدى يومًا عزلتى التى أعيش فيها موتك ، وأبكى حتى ينتفض بدنى ، لأنى - حقيقة - أخشى هذا اليوم جداً .

وها قد جاء ، وأنا أقف أمام جثمانك ، فلا يسعفنى الدمع ، . واكتفى بأن أجلس على الكرسى . أتأمل وجوه العجائز المعددات ، هن صو يحباتك . هذه المرأة أذكرها ، كم من مرة صحبتنى إلى بيتها ، كنت تعدين الزيارة ، وتقضين الأسبوع فى الخبيز وصنع الفطائر . وصوانى الأرز ، وتجمعين اللبن فى الإبريق ، والأرز فى القفة ، ثم تحضرين السيارة المخصوص ، من الباب للباب ، فتقوم بنا من أمام دارنا إلى بيت صديقتك فى المدينة .

هناك حيث شارعها المغطى بأحجار سوداء ، ونصعد سلمًا ضيقًا ومظلمًا ، لنجدها على باب الشقة بملابس بيتية خفيفة تظهر لحمها المتهدل ، الأذرع والأكتاف والصدر الواسع المكشوف .

والأحضان والقبلات والحديث حول صينية القهوة ، رفيقة صباك هى ، كم حكيت بإعجاب عن قناعتى والتزامى فى بيوت المضيفين ، فلا تكالب على طعام "وإنما عفة نفس يحسد عليها " وسمعتك تقصين على أبى كيف أننى نمت بينما البيضة التى أعطتنى إياها صديقتك فى يدى.

وها أنت تتقدمين وأنا أسير خلفك رافعًا حقيبة المدرسة الثقيلة ، كنت فى ثوبك (الشعارى) الأسود والبرقع بالقصبة الذهبية على وجهك ، وكنت قد قررت حسم الموضوع ، لأنى شكوت أكثر من مرة من ابنة الناظرة التى تتعقبنى ، ولا تكف عن إيذائى . بسبب تفوقى عليها ، فهى تستخدم سلطاتها كابنة ناظرة فى ضربى أوركلى من الخلف أو صفعى على القفا ، وبالأمس ألقت صندوق القمامة على رأسى .

ودخلت معى المدرسة ، إقتحمت غرفة الناظرة مباشرة ، وتحدثت معها بشجاعة ، هذا ولدى وهو أول فصله ، كيف تسمحوا بإهانته، ما يمر يوم إلا ويشكو من إبنتك مر الشكوى ، جئت لاطلب ملفه لأنى سأنقله إلى مدرسة أخرى ، تحترم قدراته ، وأعجب المدرسون بقوة منطقة ، ولم يرد أحد طلبك ، ولم تخرجى إلا والملف فى يدك ، وأنا فى اليد الأخرى .

أنا معك مرة أخرى ، يدى فى يدك ، نتجه إلى السوق دخلنا بين كتل النسوة المزدحمات على فرش البائعين الذين يقتعدون جانبى الشارع، وتدخل العربة الكارو المحملة بالبطاطس فتفرق بين الكتل لتشق لنفسها طريقا ، ونمت أنا على ظهرك من الخلف ، ونسيت أنى تركت ساقى اليمنى ممتدة على آخرها ، وداستها العجلة الحديدية ، وحين سمعت صوت تكسر العظام ، أدركت ما حدث ، ضربتى صدرك بعنف : ضنا أمك .

سقط فى الغيبوبة ، وتركتنى بين أجساد النسوة المائلات علىَّ ، لتلحقى بالرجل ، وتجمعى قبة جلبابه بين قبضتك ، والقبضة الأخرى امسكت بحذائك ، على رأسه ، حتى بكى الرجل ، وبكيت معه ،فقد صعب عليك إستسلامه ، وعدم مواجهتك ، أو إدعاءه البراءة .

لا نهاية للذاكرة ..

فماذا أذكر ؟ وماذا أدع ؟ أيام كثيرة سوف تأتى ، وسأكون بدونك ، ولن يتبقى لدى غير ما عشته معك .

ولم أتمالك نفسى فى النهاية ، ووجدتنى أميل عليك دون إرادة منى لأهتف فى أذنك .. سامحينى .

ولدهشتى وجدت وجهك يرتاح ، وكدت أرى المقلتين تتحركان أسفل الجفنين المغلقين ، ولكنهم شدونى من الخلف عنوة وكنت لم أزل ممسكًا بيدك الباردة التى وضعت فى وريدها الميت جماع القلب ، وحاجته للغفران .

* * *

- ٣ -

في اليوم التالى لدفنها لم أحتمل وحدتى ، إستيقظت من النوم بعد أن أخذت كفايتى منه ، كنت بحاجة شديدة إليه ، لأنى قضيت يومًا طويلاً ما بين السير فى الجنازة ، والوقوف فى المضيفة ، فاستقبالنا للمعزين لم ينته حتى ساعة متأخرة من الليل .

عدت وأخى إلى البيت وكانت زوجه أعادت كل شئ فى مكانه ، نصبت السرير الذى كان قد رفع لإدخال المغسلة ، وأعادت غرفتى إلى وضعها السابق ، كأن شيئًا لم يحدث ، البيت كما هو بفرشه وأثاثه ، لم يتبدل شئ ، غير أنه إزداد إتساعًا ووحشة بعد أن فرغ من ساكينه ، هل فرغ حقًا ؟

إننى أحسهم من حولى ، صار وجودهم من نوع آخر وجود طيفى، غامض وملتبس ، غير أنه أكثر كثافة وحيوية .

عزم علىَّ أخى بقضاء الليلة فى بيته ، فأبيت ، واجبته مستنكرًا .

- هل نغلق الدار إلى الأبد .

إننى سأتعامل فى وجودى بها كأنهم أحياء بيننا .

قال : إنى أخاف عليك من وحشة الليل .

- لا عليك .

وطرحنى الإجهاد أرضا ، لم يعطنى الفرصة فى تأمل الحال الذى أنا عليه ، نمت بإستغراق حتى أفقت قرب الفجر على الأصوات الهامسة فى حجرة الأب ، انصت لفترة ، وتعرفت على صوتهما ، فأعادتنى الأصوات إلى ألفة الزمن الغابر ، أيام كنت أنام طفلا على ونسهما ، وهما يلتفان حول الموقد وبراد الشاى ، وغلبنى النوم مرة أخرى ، حتى افقت على نور الضحى .

يا إلهى .. ماذا أفعل بوحدتى ؟

وانقذتنى طرقات الباب ،، فوجدت أخى فؤاد أمامى .

– رحت فى سابع نومه والبلد مقلوبة .

خرجنا معًا إلى ميدان المحطة ، فرأينا الزينات والأعلام واللافتات معلقة فى كل مكان ، علم كبير إنتصب عموده الخشبى فوق قاعدة التمثال الفارغة ، ولافتات ترفع أسماء أعيان البلد ، وأعضاء الحزب الوطنى ، وأعضاء مجلس الشعب والمجلس المحلى مفرودة بطولها فوق العمارة التى إقيمت مكان عيادة الحلاق القديمة وفوق العمارة المصفوفة أدوارها كعلبة الكبريت ، وعلى شرفة الطبيب ، وعلى واجهة مقهى ابن تاجر النحاس ، واكتظت النوافذ والشرفات بالنسوة والبنات والأولاد الصغار ، وتكدست الأسطح القريبة والمواجهة للمحطة بنسوة جئن من الأحياء البعيدة .

وعلقت مكبرات الصوت فوف أعمدة النور وأعلى "البلوك" وزينت البوابة الحديدية بأوراق ملونة ، كذلك واجهة "البلوك" المقابلة لشريط القطار ، والتفت لافتات أخرى فوق مظلات المحطة ، وعلقت أعلام صغيرة على مبانى المحطة وعلى جدران الزاوية المشيدة فوق الرصيف ، واستخدم مكبر الصوت الخاص بزاوية المحطة فى إذاعة الأغانى الوطنية التى يقطعها صوت غليظ يبدأ بنفخة شديدة ثم يعدد التهانى بقدوم بطل الحرب والسلام ، وكرر آية "إن جنحوا للسلم" مائة مرة على ظن أنها الأليق بالمكان الذى يتحدث منه إلى الناس ، وفى كل الأحوال فإن الصوت القادم من جهة الزاوية - برغم غلظته - كان أكثر رزانه ووقاراً من الأصوات التى نصخب بها مكبرات الصوت الأخرى ، فقد إستولى جماعة من صبية موقف السيارات على "مايك" مكبر الصوت المرفوع أمام المقهى ، وراحوا يرقصون على إيقاعات طبلة غشيمة مرتخية الجلد فأخرجت صوتًا مخنثًا هو مزيج من حنجرة الرجل الجهورى وليونة المرأة المبتذلة ، كما أن أحدهم كان يدق على رق له شخاليل يختلط رنينها بصوت الصاجات ، وكانوا يرددون كل ما يخطر على بالهم من أغان ، وبدءًا من "ودع هواك" مروراً بـ "حبه فوق .. حبة تحت .." وانتهاء بـ "بدنا نتجوز ع العيد" وبين كل أغنية وأخرى يتقدم ولد من العاملين على موقف السيارات بردد خليطا من الشعارات "بالروح بالدم نفديك يا سادات .." "عاش بطل الحرية" "عاش بطل الإشتراكية . والرجعية" .

"المعلم حزيقة يحيى بطل السلام " "الأسطى خنيفة يحيى بطل السلام" وحين لمح المأمـور مقبلا نحوه وهو يمتطى حصانه البنى الغامق هـتف له وهو لا يدرى أنه جاء لإسكاته "عاش سعادة المأمور بطل السلام .." .

– بطل يا ابن القحبة .

فألقى "المايك" على الأرض ، وجروا جميعًا فى إتجاهات مختلفة دون أن يكفوا عن الطبل والدق على الرق ، بل إن الولد الذى كان ممسكًا بالصاجات هزله أردافه من الخلف وهو يتراقص ، فغمز المأمور قدمه فى بطن الحصان لينقض عليه ، فسقط الولد على ظهره ، وأرتفعت ساقاه إلى أعلى وهو يرفص صارخًا : أنا فى عرضك يا بيه .

عاد المأمور مبتسمًا بعد أن وقعت عيناه على عورة الولد وقال لعساكره الذين شاركوه ابتسامه .. ابن القحبة ماشى من غير لباس .

وقفنا نتأمل الرصيفين النظيفين ، كانا قد اخليا من أهالى البلد ، وأحيطا بكردون من عساكر المركز المدكوكة أبدانهم فى الزى الميرى الخشن ، فرغا الرصيفان ليقف عليهما المسئولون فقط ، رئيس مجلس المدينة ، ورجال الحزب ، وأعضاء المجلس المحلى ، وفرقة المزمار البلدى بجلابيبهم السابغة التى سقطت أكمامها إلى الزندين وهم يسددون المزامير فى عين الشمس التى غشت عيونهم ، ويرفعون أقدامهم إلى أعلى وقع الطبل الكبير ، لألحانهم عراقة وفرحة تستحليها الأذن وتطرب لها ، وتعيد للنفس الحزينة ساعات البهجة المفتقدة ، فهل لك نصيب من هذه البهجة الطفلية ؟

أنت الذى ودعت أمك بالأمس . هل يهتز القلب للحن الساذج بينما أصدقاء لك يقضون أيامهم – منذ عشرين يومًا – فى زنازين المعتقل ؟

ها هو ذاهب إلى المنصورة بغرض إستعراض القوة ، وليثبت للعالم أنه يعيش فى أمان بين شعبه برغم ضربه لكل وجوه المعارضة .

عرفنا – بعد ذلك – أن صهره عثمان نصحه بإلغاء هذه الزيارة ورفض النصيحة ، وقال كله بأمر الله . وأضاف : أنا لا أخاف على نفسى وإنما على مصير من حولى ! .

وعرفنا أن أجهزة الأمن قد كشفت محاولة لإغتياله ، كانت الخطة أن يندس المنفذون وسط الجماهير المحتشدة ، ثم يتحين هؤلاء الفرصة المناسبة لسحب أسلحتهم وإطلاق الرصاص عليه عند نزوله فى محطة المنصورة .

قبضت الداخلية على العناصر الى أعدت للمحاولة وتوصلت إلى الشقة التى كانت تتم فيها اللقاءات ، وعثرت على أسلحة ونخائر ولكنها لم تفلح فى القبض على قائد هذه المجموعة الذى فر هارباً ، مما سبب ذعراً لدى رئيس الدولة ، جعله أكثر إستنفاراً وتحدياً ، وسمعه الناس وهو يخطب فى المنصورة ، ودهشوا لجملته "أنا عارفه وهو سامعنى دلوقتى " وتساءلوا : من يعنى ؟

فى زمن آخر كنا نرى نفس الخروج ، وإن كان له جلاله وعظمته ، وياله من جلال وعظمة ، البيوت تفرغ من ساكنيها ، لا أحد يبقى بين الجدران ، الجميع بمن فيهم العجائز اللائى يرفعن على الحمير ، والأطفال الرضع على صدور الأمهات ، والصبية الأكبر سناً يحملون على الأكتاف ، الكل يزحف نحو المحطة ، وعلى إمتداد الشريط الحديدى يقفون متلهفين ومرددين مع حليم الأغانى الوطنية التى تشعل وجدانهم "يا جمال يا حبيب الملايين " و"كنا حنبنى وادى احنا بنينا السد العالى " ويهتفون مع صوت عبد الوهاب الجليل "دقت ساعة العمل الثورى ..".

ويرقصون على إيقاعات أم كلثوم حين تهلل "طوف وشوف " ثم يصخبون هم بجملتهم المرتجلة " يا محنى ديل العصفورة وجمال رايح المنصورة " كانوا لا يكتفون بالترقب لطريق القطار ، بل يزحفون إلى الأرصفة ، ليتمكنوا من المشاهدة القريبة .

رفعتنى أمى على كتفها ، ووقفت لمدة طويلة على حافة الرصيف ، تميل برأسها جهة الجنوب مع من يميل ، ويحين جاء "*الديزل*" الفردانى، قالوا : *الدليل الذى يأتى فى* المقدمة .

وعند ذاك اندفع العسكر نى الحـ'ـد ، وطالبوهم بالنزول على جانبى المحطة ، فهاج الجمهور ، وتشبثوا بمواقعهم ، بيد أن قوة الدفع سحبت بدن أمى إلى أسفل ، فكانت مشاهدتى منقوصة ، فلم أر غير نعليه اللامعين ، وسراويل بدلته السوداء التى

قبضت أمي على طرفها لتقول بعلو الصوت : أشوفه زيك .. فمال بجسده الشاهق نحوي ، واستطاع رغم السير البطيئ للقطار أن يلمس شعري ، ورفعت حينذاك رأسي لأطالع وجهه المضيئ بالفودين الأشيبين فلم أقدر على المواجهة ، فصرخت من الهول ، وقطع به القطار مسافة لا تجعلني اراه مرة أخرى فنقلتني أمي إلى صدرها لتضمني بقوة ، وهي تمسح دموعها ، ثم سألتني : هل رأيته ؟ فجددت بكائي .

لم يكن باستطاعة خيالي الطفل أن يتوقع حدوث هذا في الواقع ، أن أرى ساكن السماوات الذي تشكله أحلامي يسير بيننا على الأرض . كانت معجزة فجرت حيرتها دموعي .

قلت لفؤاد : إنني لا أريد أن أراه .

- ومن سمعك .

كانت تتصارع في داخلي مشاعر متناقضة منها ما يخصني ، وما يخص الناس من حولي ، كيف اجرؤ على الوقوف بين رجاله ودهمائه لمطالعة وجهه البغيض ؟ إن مشاهدته في حد ذاتها خيانة للنفس .. ثم إن عين البلد لاترحم ، ولاتتقبل لحزينين مثلنا الوقوف وسط طبل وزمر ، فهو في النهاية عرس ، لايليق بمن ودع أمه بالأمس .

عبرنا البوابة لنتجه إلى بيت فؤاد في الحي المقابل ..

سنسمع - فيما بعد - كيف أن الرئيس لمح الحاج أبوزيد(١) واقفاً بين المسئولين ، فنادى عليه .

رفع الحاج ذيل جلبابه ليتمكن من الإمساك بالعمود المذهب لعربة الرئاسة ، فأحس بأنه يمتطي البراق الذي يضرب بأجنحته أركان الكون الأربعة ، إنه لايصدق أن يسري به في عز النهار ، الرئيس بذات نفسه ينادي عليه باسمه .

---

(١) أحد رجال ديمتري الذي اضطر أن يتنازل له عن بعض ممتلكاته حين أجبر على ترك البلاد بعد العدوان الثلاثي بشهور .

وها هو يقف بين كبار رجال الدولة . فهل رأته البلد بعينها ؟ على الأقل ، رآه رفاقه من مسئولى المركز ، وسينقلون فى الحال الواقعة .

إنه الآن يضمن ترشيحه للمجلس إلى الأبد .

وقف على جنب عاقداً يديه أسفل بطنه ، ولأنه لايدرى ما يفعل بهما كان لايكف عن ضبط طاقيته الصوف على رأسه ، ولأنه لايدرى ما يفعل به الرئيس بعد مغادرته البلد ، وقبل أن يصل القطار نهاية الرصيف ، أمسك بيد الرئيس ، وأشار إلى العمارة [٢] العالية التى تواجه البوابة الثانية للمحطة : تفضل فخامتك نخطف لقمة .

وابتسم له الرئيس وهو يطحن بفكه السفلى : شكراً ياحاج .

- والله ياإخوانا البيت قريب .

وتبادل كبار رجال الدولة الهمس ، وربت الرئيس على كتفه ودفعه برهافة حاثاً إياه على النزول .

والله هو لايدرى لماذا فعل الرئيس ذلك ؟

ولكنه قال - لشلة الأنس - ربما نقل له رجاله موقفى يوم توقيع المعاهدة ، ففى نفس الليلة طلب الحاج الإجتماع بشباب البلد من المتعلمين ليشرح لهم أهمية أن توقع مصر ، ويعدد لهم الفوائد التى ستعود على أهل البلد ، وقف على المنصة ، فلم يفتح الله عليه إلا بجملة وحيدة ظل يرددها : والله بلدنا راح تاكل بقلاوة بعد كامب ديفيد .. والختمة الشريفة بقلاوة .

* * *

(٢) ليست من أملاكه إنما تتبع تاجر كبير ، وتعتبر من أعلى البنايات فى البلد والدليل على ذلك أنها استخدمت فى رفع صفارة الإنذار اثناء سنوات الحرب ٦٧ و٧٣ .

- ٥ -

إذا امتد الشارع الذى ندخله الآن على استقامته سيصل بالتأكيد إلى أول الرمل ، على مسافة لاتزيد عن العشر كيلو مترات ينتهى الوادى بأرضة السوداء الطينية التى كانت تشكل ملكيات الأسرة الحاكمة قبل الثورة لتبدأ الصحراء برمالها وكثبانها ، أرض قاحلة ، لا حياة فيها ، تأخذك حتى تصل إلى سيناء ، لايقطعها غير خط المياه المحفور الذى يصل البحرين ، قناة السويس .

من هاهنا جاءك البدو الرحل ، وقبائل الغجر الذين حطوا رحالهم على هذه البرارى المهجورة . كان هذا الأمر لايعنيك فى شئ ، فأنت مكنونة فى أرضك العالية ، وراء أسوارك البيضاء ، يقف رجالك فى أبراجهم شاكى السلاح ، يصدون عن أبوابك الغارات ، ثم جاء من بعدهم - من نفس الطريق - رجال المناسر ، فانتشروا بين البيوت المتناثرة التى ضاقت بها أسوارك ، لينقبوا الجدران ، ويسلبوا الماشية وصناديق الغلال ويفرضوا الإتاوات .

وانهار السور أمام تكاثر أبنائك ، ورفعت الأبواب ليبدأ الزحف إلى السهل ، وبعد انقضاء الوحشة بمرور القطارات ، عبرت الشريطين ، لتجعل امتدادك على هذا الأرض .

كانت البداية بالمقاهى والغرز لتستقبل المسافرين أو يرتاح عليها - لبعض الوقت - الراحلون ، ثم وكالات تجمع المطايا حتى يعود إليها أصحابها من أغراب بعد قضاء حوائجهم فى المدن البعيدة ، ثم موقف للسيارات حين تشجع أحدهم وابتاع أول سيارة تنقل أهل البلد إلى المديرية ، بعدها جاءت خطوط الأتوبيس فاقيمت المحطة غير بعيد عن الموقف وسكة القطار ، وصار الشارع شارعين ثم ثلاثة ثم أربعة ، واتسمت هذه المنطقة بالتقسيم الحديث ، شوارع طولية وأخرى عرضية لها اتساع معقول يسمح بمرور سيارة الأجرة وسيارة النقل ، هاهنا لاتعدم العين مشاهدة ملامح مدينة جديدة ، لاشبه بينها وبين الأخرى القابعة على التل العالى .

وجاءك السوق .

اقيم له سور من حديد يحدد مساحته ، له باب كبير على جانب منه دار للحارس وأحواض لرد عطش البهيمة وصنابير كبيرة لتروى غلة البائع والشارى ، وانشئت بداخله مباسط خشبية تؤجر للتاجر ، وجملون مرتفع ليظلل على الصاغة .

وقسمّ السوق إلى مواقع حيث يجتمع تجار الصنف الواحد فى مكان بعينه ، هنا السماكون ، وإلى جوارهم باعة الخضار والفاكهة ، وعلى مقربة منهم تجار الأقمشة والملابس الجاهزة ويتناثر فيما بينهم السمكرية وبائعو الفول والطعمية ، أو يصخب فى زحامهم رجال يرفعون الدوارق الكبيرة على بطونهم ويضربون بأيديهم على صاجات تنبه الناس للشربات الملون والعصائر .

وجاءك الخلق من كل صوب ..

فضج المكان بحركة البيع والشراء ، واعتاد أهل القرى المجاورة النزول إلى البلد لابتياع لوازمهم ، كما اعتاد تجار المدن القريبة رفع بضائعهم على عربات الكارو ليروجوا لها بين المترددين على السوق .

وظهرت بيوت على جانبى السوق ..

انقضى – إذن – زمن وحشتك ، وعزلتك .

الآن يأتى إليك الناس بالقطارات والسيارات ، يترددون على سوقك ، بعد أن كنت لاترى الغرباء سوى مرة واحدة فى العام ، عند إقامة المولد السنوى لصاحبة المقام ، الوحيدة التى مجدت بين أوليائك .

بعد قيام الثورة . بنيت فى مداخلك المنشآت الجديدة ، فى المدخل الجنوبى أسست الوحدة البيطرية والساحة الشعبية وبيت رئيس المدينة وشونه الغلال والمحكمة والمدرسة الثانوية ، وفى المدخل الشمالى منشآت آخرى ، هندسة الرى ، والمعهد الدينى للفتيات وبنك مصر والمساكن الشعبية ومبنى مجلس المدينة ، ونصُف طريق الأسفلت ، فقامت فى الوسط أعمدة النور ، وعلى الجانبين أشجار لها زهر أحمر وثمار صغيرة تشبه

البطيخ - تفتقت عن أقفاص الجريد لتزدهى بخضرتها ، وأقيم السور من الدبش الأبيض ليحفظ للقطار طريقة ، وأمام السور تعددت المحلات لكتبة المحكمة والمحامين وورش إصلاح السيارات .

كان للأب نصيب من أرضك هذه .

ادخل الآن الجزء المتبقى منها ، بيت فؤاد .

قبل الثورة بسنوات قليلة دخل مزاد الأرض التى تؤول لحليم باشا ، فى هذه الحقبة كان الأب قد افلح فى إقامه العلاقات مع التفتيش الأميرى وعرف وسائل التقرب من موظفيه ، فارسل الهدايا الثمينة ، وذبح الذبائح ، وأولم الولائم ، واعتاد أهل الحى على « كاريتة » المفتش يركنها أمام « الفراندة » وينزل هو وأتباعة ليجتمعوا على عشاء من أطايب الطعام ، المشوى والمسلوق والمطبوخ ، من لحوم الضأن والدجاج والبط والرومى ، بعدها تمتد جلسة الحشيش حتى الساعات الأولى من النهار على شدو أم كلثوم فى حفلها الشهرى ينطلق من مذياع له ضوء يشع على واجهته ، ويستمد طاقته من أسلاك متصلة ببطارية مشحونة من « دينامو » الطاحونة .

هكذا هجر الأب الدار القريبة من الطاحونة .

بعد أن وجه عنايته زمناً لامتلاك الأرض ، ليعود إليها فى شيخوخته فيقضى بين جدرانها العالية أيامه الأخيرة ، ويكون قد ترك هذا البيت لولده ، بعد أن اضطر إلى بيع مساحات واسعة من أحواشه ليسد بها الأزمات الطارئة .

عاد إلى بيت الطاحونة مرة أخرى بعد أن ولى زمن الأرض الواسعة التى كانت تغدق عليه المحصول الوفير تفيض به الصناديق وأسطح الدار وأرض الحوش ، وفى أوقات التحاريق يجرف الأرض فيخرج منها الطمى يجلبه إلى أحواش الدار ليقيم معجنة مهولة تلوك فيها الخيل بسيقانها يوماً بكامله ، ثم يأتى العمال فيضربون هذا الطين قوالب ، تصف فى المساحات الفارغة معرضة للشمس اللاهبة ، ثم يأمر بإقامة القمينة التى يصف فيها الطوب ، وتضرم نارها الحامية ليخرج فى النهاية طوباً أحمر

يوزعة الأب مجاناً ، مرة لإقامة مسجد الحى ، ومرة لإقامة جمعية لتحفيظ القرآن ، وأخرى يهبها مجاملة لحضرة معاون المركز الذى يشرف على تأسيس النادى الرياضى ، ولم يحفل أبداً بأن ينشئ لنفسه بيتا من الحجر ، ظل عاشقاً لبيوت الطين ، واكتفى باستخدام القالب الأحمر لمداود الماشية وعتبات الدور وللجدار الخاص بحنفية المياه .

استمر على هذا المنوال مواسم عدة ، ثم فاجأته الثورة ، فأممت أرض الباشا ، ووزعت على الفلاحين الذين كانوا يعملون لديه ، أما هو فلم يطبق عليه قانون الإصلاح ، حرم من ملكية الأرض التى كان يزرعها ، وكانت حجة اللجنة أنه يمتلك الطواحين ، ولاتنطبق عليه صفة الفلاح كما حددها رجال الثورة ، سعى إلى كل الجهات غير أن الأبواب ظلت مغلقة فى وجهه ، واستمر عداؤه للعمدة وأعضاء اللجنة قائماً فيهم وفى ذريتهم حتى رحيله .

هاهو يسمع حديث الناس عن السيدة إيزابيل اليهودية التى تبيع أرضها برخص التراب ، قبل أن يلحقها قانون تحديد الملكية ، فعاجل بجمع ماتراكم لديه من مال ، ودفع المبلغ المطلوب ليحوز مساحة معقولة من الأرض .

وتبدل رفضة الشديد للثورة إلى تأييد حاسم « لولاها ما صرت مالكا » و « فدان واحد ملك أبرك من خمسين فداناً ايجارا » هكذا كان يقنع نفسه ، أو يلخص فى جملته عصارة حكمته للآخرين .

* * *

- ٦ -

ودعت فؤاد بعد أذان المغرب ، خرجت من بيته مكتظاً بطعامه ، وكان قد تجرأ على الحديث حول مستقبل الأرض والطاحونه والبيت ، وقال إننى لا أملك الوقت الكافى لمتابعة مثل هذه الأمور ، وطالبنى بالذهاب معه صباح الغد إلى الشهر العقارى لاوقع له توكيلا خاصاً ، يمكنه من تصريف هذه الشئون بدلاً من اللجوء إلى استدعائى فى كل صغيرة وكبيرة ، أو نتوكل على الله ونبدأ التقسيم فى الحال .

وتركنى للإختيار ..

قلت له : ربنا يسهل . إنك فاجأتنى ، والموضوع بحاجة إلى وقت طويل .

فقال : الأعمار بيد الله ، وهذه سنة الحياة ... وخير البر عاجله .

لايعلم أننى انفر من مثل هذا التفكير العملى ، فهو باتر وقاطع ، لايدع فرصة للعاطفة ، ولا للتأمل فى مصائرنا ، فى زمن الأب لم يكن ليجرؤ على طلب استقلاليته ، صحيح إن الأمور ستنتهى بأن يحوز كل واحد منا نصـيبه ، ولكننى بحاجة لوقت طويل حتى أشعر برحيل الأبوين ، كما أننى أخشى أن يتركنى وحيدا حين يستقل بميراثه ، وأنا لاخبرة لى بإدارة ما سيؤول إلىَّ .

تركت الأمر معلقاً بيننا على وعد أن يتم ذلك بعد طلعة العيد الكبير .

أضيئت أنوار الشارع الكبير ومصابيح المحلات والمقاهى المنتشرة على رصيفة ، واختلطت أصوات الراديوهات تذيع برامج أول الليل ، ألقيت نظرة باتجاه المحطة فوجدت الزينات قد رفعت عن الأعمدة ، وسقطت الأوراق الملونة عن البنايات وتدلت من سطح « البلوك » إلى الأرض دون أن يهتم أحد برفعها ، قلت : إننى لا أستطيع العودة الى البيت فى هذا الوقت .. لا مانع من جولة خارج البيوت .

مررت على مقهى الحاج محى ، كان حضور الفواعلية وعمال البناء كثيفاً كالعادة ، تزدحم الكراسى الموزعة على الرصيف بالجلابيب والعمائم ، نفس المقهى الذى كنت

أسعى إليه ، فأجد أبى بين أصدقائه يلتفون كل صباح ليدخنوا كرسى المعسل ، ويطالعوا الجريدة اليومية ، ويعلقوا على الأحداث بطريقتهم الخاصة ، كانت سحنهم الوقور تضئ بنور العمائم المزهرة ، وتستدفئ أجسادهم بعباءات الجوخ السوداء . اليوم تبدل الحال ، رحل هؤلاء مع زمانهم ليقتعد الفواعلية مقاعدهم بانتظار المقاول الذى يقبض لهم الأجر ويوزعهم على مواقع العمل .

كم مرة اتخذت مكانك فى صفوف الإستعراض ؟

فى كل مناسبة وطنية ينتقى المدرسون التلاميذ الذين يتصفون بالنظافة وحسن الهندام ، ليرفعوا أعلام المدرسة واللافتات التى تحمل جملاً من خطب الرئيس . نسير بخطوات منتظمة تدق نعالنا الصغير على أرض الأسفلت على إيقاعات فرقة المدرسة الموسيقية لتخرج الأمهات وناس البلد إلى النواصى يطالعون وجوهنا الصارمة وخطوات أقدامنا الثابتة ، فتفلت منهم مشاعرهم وتطلق الزغاريد ، فرحة بنا ، لابأعياد الوطن .

مازال بنـاء جمعية تحفيظ القرآن على حاله ، هذا هو الحجر الكبير ، كنا نجتمع فوقه تاركين أبداننا المبرودة لشعاع الشمس ، يأتينا صفير قطار الدلتا من وراء الأسوار ، اليوم فتحوا طريقا يعبر إلى الجهة الآخرى ، بعد أن رفع شريط « سوارس » وبسط مكانه طريق مسفلت عريض .

أين راحت رائحة الريحان ؟

لاشئ يطل من أسوار هندسة الرى ، بعد أن اهملت حديقتها الجميلة اعيد بناؤها من جديد ، أزالوا البناء الذى أنشئ على الطراز الأجنبى ، بسقف من قرميد أحمر ينزل هابطاً على الجانبين ، وأعمدة وأسوار تطل على الحديقة ، ومدخل مفروش بالحصباء الملونة ، يصل إلى مطلع الباب الكبير المكون من هيكل حديدى عشقت زخرفاته النباتية بقطع من الزجاج الملون .

كانت الهندسة هى المكان الوحيد الذى يضاء بالكهرباء قبل أن يمدوا الأسلاك بين أعمدة الشوارع ، كنا نسمع تكتكات ماكينة الكهرباء داخل الغرفة المستقلة ، ونلعب تحت أنوار المصابيح التى تشبه القبعات البيضاء . وتوارت رائحة الريحان .

واهملت الحديقة بعد أن برز البناء الجديد الخالى من الأعمدة والزخارف ، لا شىء غير مربعات النوافذ ، ومسطحات طويلة فى خطوط متوازية ، لاتلمس القلب أبداً .

هل كان جدك هو رجل الصنبور أم تراه شبحاً لشخص يشبهه ؟

الذاكرة الآن فى حالة اختبار ، إن لم يكن جدك فلم اتيت يوماً إلى هذا المكان ؟ ولم دنوت نحو هذا الرجل الذى أمسك بيدك الصغيرة وقال : افتح للنسوة . فضغط على المفتاح ليندفق الماء فى حلوق الجرار . ماء غزير يضيع نصفه على هدوم البنات اللائى يتحركن فوق الحجارة المغروسة فى البركة .

ما يؤكد أنه جدك قول أمك أن الأرض المجاورة للجمعية كانت ملكاً لنا ، باع جدك نصيبه منها للغريب الذى أقام عليها محطة للبنزين .

ولكنك رأيت يوماً هذه الحظيرة المهجورة .

ظلت زمنا وحيدة لم يهدمها الغريب ، ابقاها خارج أسواره ، وفى طريق المدرسة كنت تقف وقتاً طويلا لتتأمل هذا البيت الصغير المشيد على سطحها .

كم بهرك هذا البيت المكون من طابقين ، وكم حلمت بالدخول إليه فتجول بين ردهاته ، وقصصت على أمك حكاية البيت واذهلتك حين قالت : إنه ذلك البيت الذى بنيته بيدى وأنا طفلة .

وقالت : فى عصرية صيفية رائعة تسلقت الجدار أنا وصديقه لى عجنا الطين فى إناء من فخار ، وأحضرنا الحجارة المهملة بين عيدان الحطب لنقيم البيت الذى وقعت فى غرامه ، احتفظ بوجوده لأن أحداً لايجرؤ على الصعود إليه ، ولن يسقط حتى تهدم الحظيرة بكاملها .

هذا هو نفس الطريق إلى أرضنا البعيدة ، فى هذا المكان بالتحديد سقطت تحت الجميزة العجوز . كنت عائداً من الغيط ممتطياً الحمارة الحرون ، وضعت قدميك فى خصم الغبيط ، ورفعت العصا فوق رأسها لترمح بك ، ولكنها الملعونة اسقطتك على

الأرض فيصدم رأسك بجذع الجميزة ، رفعك الناس من تحت إبطك ليذهبوا بك إلى المستشفى القريب [1] .

ستنحرف لتعبر المزلقان الأخير ، لا طاقة لك فى المرور من أمام المشرحة ، فى كتلة الظلام المحيطة بها تعشش عفاريت الموتى ، وتحت أسوارها تلهو أرواح مجنونه تقطع الطريق وتبخ ألسنه النار فى وجوه المارة .

سكون المكان هيأ للراحلين القيام ، من ماء الترعة يصعد الغرقى ، ومن بين القضبان وقطع الزلط تتجمع أشلاء القتلى الذين داستهم العجلات الحديدية .

تعود الآن مهرولاً . لا قدرة لك على النظر إلى الخلف لتتأكد من تلك الوجودة التى تفح بأنفاسها من حولك .

* * *

---

(١) أمرت بتأسيسه الملكة فريدة ، على رأس الألفى فدان التى سجلها فاروق باسمها كهدية عرس ، وبدل اسم القرية التى يقع بها التفتيش الملكى ليحمل اسم الزوجة الأولى لملك البلاد .

- ٧ -

لم ألحظ شيخوخة هذه الدار من قبل ، رأيت ذلك وكأنما حدث فى يوم وليلة ، لم انتبه لكونى اهبط إليها الآن قدر عتبتين بعد أن كنت اصعد إلى بابها درجتين ، ولم يلفت نظرى هاتان النافذتان المنخفضتان اللتان تسمحان للمارين فى الشارع بالنظر منهما ، كانتا يوماً مرتفعتين فوق قامة الرجل ، وكنا بالداخل لانرى سوى رأس أحداهم حين يكون على ظهر الجمل .

تلك الشروخ فى الجدران متى تفتقت ؟ ومتى مالت الحوائط كل هذا الميل ؟ وفى أى حين تساقطت الدهاكة ، وتقشر اللون ، فانهال فى رقائق خفيفة تحت الجدار ؟

امرق إلى الردهة الصغيرة ، فتواجهنى الستارة التى تحجز الداخل عن غرفة الضيوف ، وينقطع التيار الكهربائى فجاة . هل اعود القهقهرى إلى الخارج ؟

أنا متعب إلى أقصىٰ حد ، وبدنى بحاجة إلى الراحة والنوم العميق ، لابد من البحث عن مصباح الجاز ، هاهى ذى القداحة فى جيبى ، أوقد شعلتها ، وأسير على هدى نورها المحدود .

تتحرك ثنايا الستارة حركات خفيفة ، أيمكن أن تخفى أحداً ورائها ؟ أم أنها نسمة الهواء المقبلة من فتحة السلم الداخلى ؟ إعيد السيطرة على نفسى ، وامتلك الشجاعة الكافية لرفعها إلى أعلى ، لا أحد هناك ، لاتخضع إذن لأوهامك ، هل جاء الوقت الذى تخاف فيه من بيتك ؟

أنت تحفظ أركانه ، وتألف أشياءه ، وهى تألفك ، لايمكن بحال أن تصاب بأذى هنا ، فى مكان الألفة والحنين .

هذا هو المصباح معلق على حائط المطبخ ، اشعل فتيله فتسطع بقعة النور ، وتزداد دائرتها إتساعاً ، أضعة الآن على الطاولة الكبيرة لاتمكن من تبديل ملابسى ، وارتداء منامتى .

من أين يأتينى هذا الهمس الخفيض ؟ ومن الذى أشعل النور المتسرب من حجرة الأب ، إننى اتقدم لانظر بين الضلفتين فأراه هناك عاريًا فى الطشت ، يجلس على كرسى خشبى ، وأمى وراءه تنقل الماء وتزيل عن الجسد رغاوى الصابون ، ويتصلان فى حديث لا تلتقطه الأذن وإن بدا حوارًا حميمًا يرسم البسمة على وجهيهما ، بسمة الرضى والصفاء ، تمامًا كما كانا فى زمانهما الأول .

عدت إلى حجرتى ممسكًا المصباح بين يدى ، وضعته على المنضدة أمامى ، وتمددت بجسمى على السرير ، ظلت عيناى مفتوحتين فى فراغ الغرفة تتأملان الكتب المصفوفة على الرف ، وتتنقلان عبر الكائنات الخرافية التى يشكلها الظل والنور بين أعمدة السقف الخشبية ، وعلى قشور الحوائط ، كائنات كثيرة تتشكل وتتبدل وتختفى ، تصرخ أفواهها دون أن يخرج منها صوت ، لا مفر من الرحيل .

واستسلمت للغفوة ، وكدت أسحب بدنى تحت الغطاء فى اللحظة التى رأيتها وهى تفتح الباب ، جلست على الأرض تمشط شعرها المبلول ، وجعلته ضفيرتين كبيرتين تنزلان على صدرها ، ومسحت بطرف منديلها سائل الكحل الأسود حول عينيها ، بعدها قامت متجهة نحو السرير بجلبابها الخفيف الذى يبدى تكورات الجسد الممتلئ ، صعدت إلى الفراش وتمددت إلى جوارى فى صمت . بعد حين رفعت ذراعها وضمتنى إليها دون أن أشعر بالضمة ، كنت فى حالة لا يسمح بالتفريق بين الكائنات الخرافية التى ازدحمت بها غرفتى وبين وجودى المجسم ، استحلت إلى كائن طيفى يحوم فى هواء الحجرة ، ويبدل موقعه على الجدران .

(ورأيتنى أسير فى طريق ضيق على جانبيه نخيل ، كنا كمن يغور فى لوحة زيتية ، والغبش أصبح أكثر قتامة ، وقفنا عند منتهى ترعة راكد ماؤها ، على رأسها سور منخفض ابتناه فلاح بطين وتبن ، وفرشه بقش منفوش ، وجديد ، قدحتا عينان لوغد أعرفه ، وأكرهه .

فكرت : بين الأسوار مكان ملموم .

سحبتها والنشوة تمشى فى عظامى ومتجمعة عند الأنف ، خفت أن أعطس حتى لا أفقدها ، كنت أشعر بالفحولة ، فرحت لما ذهبت هى أمامى وغطست بين القش عارية مشتهاة رغم الثياب المهلهلة والقش الذى يحويها أردت أن أفرغ فيها ذكورتى ، كنت سعيداً لما نظرت فى عينيها ورأيت الرغبة فى احتضانى ، وارتميت منهداً إلى جوارها قلت : منذ متى وأنت تذهبين إليهم ؟

أحتوت بكفيها أذنى المتقدتين ، قلت : أحبك .

رسمت على أن أضع شفتينا فى تطابق ، ونجحت ، لما لملمت شعرها إلى الوراء ، قالت : يا حبيبى .

لما ضغطت بيدى على نهديها الدافئين تنهدت .

وتقلبنا فى طقطقات القش ، كنت محرجاً حين مددت يدى إلى السراويل أخلعه وظهرت خلفيتى ، كانت جريئة ، ومشجعة ، حين تصالح عرقنا رأيت رأس الوغد التى برزت من الطاقة ، انسحبت كل الذكورة لما نظرت – هى – إليه بتوسل ، ولم أتمالك ، قطعت ثوبها ، انفلت منه النهدان ، لطمتها وتشعث شعرها ، وقفت وبرجلى أرسلت الضربات القوية ، جاء لينقذها ، واصلت الضرب ، أردت ألا تقع نظراته على شئ من جسمها ، كنت أحميها منه واضربها، وفى عينيها عتاب ، وحين تقدم تهت ، عن نفسى فى توجيه اللكمات إليه حتى سقط .

انسحبت لتذهب ، شددت شعرها ، صرخت ، سالت دموعها ، أحبها أكثر حين تبكى ، ألقى رأسها على كتفى وأقبلها أرتعشت شفتاها: ألا تصدق .. أنا أحبك .

وامتزج بنشيجها صراخ ، ألتفت حولى ، كأن صراخ طفل لما تمليته عرفت ملامحه ..

قالت لى ذات مساء : أريد أن يكون لى طفل من دمك) .

* * *

مدينة نصر – ١٩٩٦

المؤلف

– يوسف أبو رية .

– مواليد ، يناير ١٩٥٥ – مدينة ههيا – محافظة الشرقية .

– قضى كل مراحل التعليم فى مدينته ، ثم انتقل إلى القاهرة عام ١٩٧٣ عقب حرب اكتوبر مباشرة ليدرس الصحافة بكلية الإعلام – جامعة القاهرة .

وأنهى تعليمه الجامعى عام ١٩٧٧ .

– عمل محرراً أدبيًا فى العديد من المجلات والجرائد القومية والمعارضة ، لكنه هجر الصحافة ليتفرغ للكتابة الأدبية .

– حصل على منحة التفرغ من المجلس الأعلى للثقافة لمدة ثلاث سنوات لينجز عملين روائيين ومجموعة قصصية ورواية للأطفال .

– ترجمت قصصه إلى الإنجليزية منذ عام ١٩٧٩ ضمن مختارات القصة العربية ARBIC SHORT STORIES التى قام بترجمتها لدار كوراتيت بوكس المستشرق الإنجليزى دينس جونسون ديفز ثم ترجمت أعماله مرتين إلى اللغة الألمانية ، الأولى ضمن مختارات القصة المصرية القصيرة التى قامت بترجمتها المستشرقة الألمانية دوريس كيلاس عام ، ١٩٨٩

والمرة الثانية قام بها المستشرق السويسرى هارتموت فيندرتش عام ١٩٩١ .

– سجل الباحث الأردنى زياد أبولبن رسالة ماجستير عن مجمل أعماله القصصية ، صدرت فى عام ١٩٩٥ تحت عنوان (الأطفال فى قصص أبو رية) .

صدر للمؤلف

صدرت له حتى الآن خمس مجموعات قصصية هى :

١ - **الضحى العالى** - دار شهدى ١٩٨٥ .

٢ - **عكس الريح** - الهيئة المصرية العامة للكتاب - مختارات فصول ١٩٨٧ .

٣ - **وش الفجر** - الهيئة المصرية العامة للكتاب - مختارات فصول ١٩٩٣ .

٤ - **ترنيمة للدار** - الهيئة العامة لقصور الثقافة - سلسلة أصوات ١٩٩٥ .

٥ - **طلل النار** - الهيئة العامة لقصور الثقافة - سلسلة أصوات ١٩٩٧

صدرت له روايتان هما :

١ - **عطش الصبار** - روايات الهلال ١٩٨٩ .

٢ - **تل الهوى** - روايات الهلال ١٩٩٩ .

وله للأطفال :

١ - **خبز الصغار**- دار الفتى العربى ١٩٨٨ .

٢ - **أسد السيرك** - دار الفتى العربى ١٩٨٩ .

٣ - **طفولة الكلمات** - الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٥ .

٤ - **الأيام الأخيرة للجمل** - رواية هوبوبوكس ١٩٩٨ .

تحت الطبع :

١ - **غرف دافئة .. مقام بارد** - مجموعة قصصية .

- وللأطفال :

١ - **حقل صغير** .

٢ - **هكذا تكلمت الأشياء** .

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٣٧٣٤ / ٢٠٠٢

هـذا الكـاتـب



يوسف أبو ريه

- مواليد ٢ يناير ١٩٥٥ – مدينة ههيا محافظة الشرقية.
- عمل محررا أدبيا في العديد من المجلات والجرائد القومية والمعارضة .
- حاصل علي منحة تفرغ من المجلس الأعلي للثقافة.
- عضو لتحاد كتاب مصر.
- شارك في تأسيس الفرع المصري لنادي القلم الدولي، ويشغل أمين الصندوق حتي الآن.
- نشر أعماله القصصية في العديد من المجلات والصحف المصرية والعربية.
- ترجمت قصصه إلي الإنجليزية منذ عام ٧٨ ضمن مختارات القصة العربية.
- ترجم مرتين إلي اللغة الألمانية الأولي ضمن مختارات القصة المصرية القصيرة التي ترجمتها المستشرقة الألمانية دوريس كيلاس عام ١٩٨٩، والمرة الثانية قام بها المستشرق السويسري هارتموت فيندرتشي عام ١٩٩١.
- أصدر حتي الآن خمس مجموعات قصصية: «الضحي العالي» (١٩٨٥) – «عكس الريح» (١٩٨٧) – «وش الفجر» (١٩٩٣) – «ترنيمة الدار» (١٩٩٥) – «طلل النار» (١٩٩٧)

– وأربع روايات: «عطش الصبار» (١٩٨٩) – «تل الهوي» (١٩٩٩) «الجزيرة البيضاء» (٢٠٠٠) «ليلة عرس» (٢٠٠٢).

– وأربعة كتب للأطفال:

«خبز الصغار» (١٩٨٨) – «أسد السيرك» (١٩٨٩) – «طفولة الكلمات» (١٩٩٥) – «الأيام الأخيرة للجمل» (١٩٩٨) .

يعيش الناس الحياة فى كل صورها

يحيون الحياة والموت معًا ، ليس الموت هنا

مضاداً للحياة ، بل هو المقابل الحى لها ،

يبرز واقعًا صلداً مخيفًا محزنًا باقيًا لا مفر

منه وإن سهلت الإحاطة به والالتفاف حوله .

ومن فوق الناس ينظر يوسف أبو ريه إلى

موكب الحياة والاحياء ، ترتفع نظرته أحيانًا حتى

تبلغ مراتب الشعر وتسمو فوق هذا إلى حال

من الصوفية ، عذبة مقبولة لا افتعال فيها .

د. على الراعى

